كتاب

الجواب الكافي

لمن سأل عن الدواء الشافي

للعلامة الإمام شيخ الإسلام علم العلماء الأعلام
أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي الشهير
بابن قيم الجوزية المتوفى
سنة ٧٥١ هجرية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Marfat.com

كتاب

الجواب الكافي

لمن سأل عن الدواء الشافي

للعلامة الإمام شيخ الاسلام علم العلماء الأعلام

أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي المشتهر

بابن قيم الجوزية المتوفى

سنة ٧٥١ هجرية

يطلب من

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل الشيخ الامام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبي بكر عرف (بابن القيم الجوزية) رضى الله عنه ماتقول السادة العلماء أئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين فى رجل ابتلى ببلية وعلم انها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق فما يزداد الا توقداً وشدة فما الحيلة في دفعها وما الطريق الى كشفها فرحم الله من أعان مبتلى والله فى عون العبد ما كان العبد في عون أخيه أفتونا مأجورين

بيماری اور شفا احادیث

فكتب الشيخ رضى الله عنه تحت السؤال الجواب الحمد لله (أما بعد) فقد ثبت في صحيح البخارى من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ماأنزل الله داء الا أنزل له شفاء وفى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل داء دواء فاذا أصيب دواء الداء برأباذن الله وفى مسند الامام احمد من حديث اسامة بن شريك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله لم ينزل داء الا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله وفي لفظ إن الله لم يضع داء الا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحداً قالوا يارسول الله ماهو قال الهرم قال الترمذى هذا حديث صحيح وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها وقد جعل النبي صلي الله عليه وسلم الجهل داء وجعل دواءه سؤال العلماء فروي أبو داوود فى سننه من حديث جابر ابن عبد الله قال خرجنا في سفر فاصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال هل تجدون لى رخصة فى التيمم قالوا مانجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال قتلوه قتلهم الله الا سألوا إذ لم يعلموا فانما شفاء العي السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه بخرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده فاخبر أن الجهل داء وان شفاءه السؤال وقد أخبر سبحانه عن القرآن انه شفاء فقال الله تعالي ولوجعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدي وشفاء وقال وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ومن ههنا لبيان الجنس لاللتبعيض فان القرآن كله

آیات

Marfat.com

شفاء كما قال في الآية الاخري فهو شفاء للقلوب من داء الجهـل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزلة الداء من القرآن وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى سفرة سافروها حتي نزلوا على حى من أحياء العرب فاستضافوهم فابوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لاينفعه شيء فقال بعضهم لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء فاتوهم فقالوا أيها الرهط ان سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لاينفعه فهل عند أحد منكم شيء فقال بعضهم نعم والله إني لأرقى ولكن والله إستضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلا فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه ويقرأ الحمدلله رب العالمين فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي ومابه قلبة فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم إقتسموا فقال الذي رقا لانفعل حتى نأتي النبي صلي الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان فننظر بما يأمرنا فقدموا على رسول الله صلي الله عليه وسلم فذكروا له ذلك فقال وما يدريك إنها رقية ثم قال قد أصبتم اقتسموا واضربوا لى معكم سهماً فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأن لم يكن وهو أسهل دواء وأيسره ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأي لها تأثيراً عجيباً في الشفاء ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء ولاأجد طبيباً ولا دواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحه فأري لها تأثيراً عجيباً فكنت أصف ذلك لمن يشتكى ألماً وكان كثير منهم يبرأ سريعاً ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له وهو ان الاذكار والآيات والادعية التي يستشفى بها ويرقابها هي في نفسها نافعة شافية ولكن تستدعى قبول المحل وقوة همة الفاعل وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعل او لمانع قوي فيه يمنع ان ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدويه والادواء الحسية فان عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره فان الطبيعة اذا أخذت الدواء لقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول وكذلك القلب اذا أخـذ الرقاء والتعاويذ بقبول تام وكان للراقى نفس فعالة وهمـة مؤثرة في إزالة الداء وكذلك الدعاء فانه من أقوى الاسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعفه فى نفسه بان يكون دعاء لايحبه الله لما فيه من العدوان وإما لضعف القلب وعـدم إقباله علي الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا فان السهم يخرج منه خروجا ضعيفاً وإما لحصول المانع من الاجابة من أكل الحـرام والظلم ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها كما فى صحيح الحاكم من حديث

سورة الفاتحة
حكايت
Marfat.com

أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أدعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة واعلموا أن الله لايقبل دعاء من قلب غافل لاه فهذا دواؤنا نافع مزيل للداء ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمديده الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام ومابسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لابيه أصاب بني إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجا فأوحي الله عزوجل الى نبيهم أن أخبرهم إنكم تخرجون الى الصعيد بابدان نجسة وترفعون الي أكفا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام الآن حين اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا منى الابعدا وقال ابو ذر يكفى من الدعاء البرأ ما يكفى الطعام من الملح

حكايت

فصل

الدعاء

والدعاء من أنفع الادوية وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم فى صحيحه من حديث على بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والارض وله مع البلاء ثلاث مقامات • أحدها أن يكون أقوي من البلاء فيدفعه • الثاني أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً • الثالث أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه وقد روي الحاكم فى صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايغنى حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة وفيه أيضاً من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء وفيه أيضاً من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرد القدر الا الدعاء ولا يزيد فى العمر الاالبر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه

فصل

الالحاح

ومن أنفع الادوية الالحاح فى الدعاء وقد روى ابن ماجة في سننه من حديث أبي هريرة

Marfat.com

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يسئل الله يغضب عليه وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي صلي الله عليه وسلم لاتعجزوا فى الدعاء فانه لايهلك مع الدعاء أحد وذكر الاوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الملحين فى الدعاء وفى كتاب الزهد للامام أحمد عن قتادة قال قال مورق ماوجدت للمؤمن مثلا الا رجل في البحر على خشبة فهو يدعو يارب يارب لعل الله عز وجل أن ينجيه

فصل

استعجال

ومن الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطي الاجابة فيستحسر ويدع الدعاء وهو بمنزلة من بذر بذراً أوغرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله وفى البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يستجاب لاحدكم مالم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي وفي صحيح مسلم عنه لايزال يستجاب للعبد مالم يدع بأثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل قيل يارسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لى فيستحسر عند ذاك ويدع الدعاء وفي مسند أحمد من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايزال العبد بخير مالم يستعجل قالوا يا رسول الله كيف يستعجل قال يقول قد دعوت لربي فلم يستجب لى

فصل

آداب الدعاء
أوقات الاجابة

واذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف وقتاً من أوقات الاجابة الستة وهي الثلث الاخير من الليل وعند الأذان وبين الأذان والاقامة وادبار الصلوات المكتوبات وعند صعود الامام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلوة وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم وصادف خشوعاً في القلب وانكساراً بين يدي الرب وذلاله وتضرعاً ورقة واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله تعالى وبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ثني بالصلوة على محمد عبده صلى الله عليه وسلم ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار ثم دخل على الله والح عليه فى المسئلة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل اليه باسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة فان هذا الدعاء لايكاد يرد أبداً ولا سيما ان صادف الادعية التي أخبر النبى صلي الله عليه وسلم أنها مظنة الاجابة أو أنها متضمنة للاسم الأعظم فمنها مافي السنن وفي صحيح بن حبان من

Marfat.com

الاسم الاعظم

حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول اللهم إني أسألك باني أشهد أنك أنت الله لا إله الا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد فقال لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطي وإذا دعي به أجاب وفي لفظ لقد سألت الله باسمه الاعظم وفى السنن وصحيح أبي حاتم بن حبان أيضاً من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلى ثم دعا فقال اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله الا أنت المنان بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام ياحى ياقيوم فقال النبي صلي الله عليه وآله وسلم لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطي وأخرج الحديثين أحمد فى مسنده وفى جامع الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي صلي الله عليه وسلم قال إسم الله الاعظم فى هاتين الآيتين وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم وفاتحة آل عمران الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وفى مسند أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أنطوا بياذ الجلال والاكرام يعني تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أهمه الامر رفع رأسه الى السماء وإذا اجتهد في الدعاء قال ياحى ياقيوم وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قال ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث وفى صحيح الحاكم من حديث أبي أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الاعظم في ثلاث سور من القرآن البقرة وآل عمران وطه قال القاسم فالتمستها فاذا هي آية الحي القيوم وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلي الله عليه وسلم قال دعوة ذي النون اذ دعا وهو فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين إنه لم يدع بها مسلم في شئ قط الا استجاب الله له قال الترمذى حديث صحيح وفي صحيح الحاكم أيضاً من حديث سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بشئ إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يفرج الله عنه دعاء ذي النون وفى صحيحه أيضاً عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول هل أدلكم على اسم الله الاعظم دعاء يونس فقال رجل يارسول الله هل كان ليونس خاصة فقال ألا تسمع قوله فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجي المؤمنين فأيما مسلم دعا بها فى مرضه اربعين مرة فمات في مرضه ذلك أعطي أجر شهيد وان برأ برأ مغفوراً له وفي الصحيحين من حديث بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب لا إله الا الله العظيم الحليم لا إله الا الله رب العرش العظيم

Marfat.com

لاإله الاالله رب السموات ورب الارض رب العرش الكريم وفى مسند الامام أحمد من حديث على بن أبي طالب رضي الله عنه قال علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل بي كرب أن أقول لاإله الاالله الحليم الكريم سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين وفي مسنده ايضاً من حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك اللهم بكل اسم هولك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أوأنزلته فى كتابك او استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي الا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحا فقيل يارسول الله ألانتعلمها قال بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها وقال ابن مسعود ما كرب نبي من الانبياء الا استغاث بالتسبيح وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجانين في الدعاء عن الحسن قال كان رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من الانصار يكني أبا مغلق وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره يضرب به في الآفاق وكان ناسكا ورعا فخرج مرة فلقيه لص مقنع فى السلاح فقال له ضع مامعك فاني قاتلك قال فماتريد الادمي فشأنك والمال قال أما المال فلى ولست أريد إلادمك قال أما إذا أبيت فذرني اصلى أربع ركعات قال صل مابدالك فتوضأ ثم صلى أربع ركعات فكان من دعائه فى آخر سجدة أن قال ياودود ياذ العرش المجيد يافعال لماتريد أسألك بعزك الذي لايرام وبملكك الذي لايضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك ان تكفيني شر هذا اللص يامغيث اغثني يامغيث اغثني يامغيث اغثني ثلاث مرات فاذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل اليه فقال قم فقال من أنت بابي أنت وأمي فقد أغاثني الله بك اليوم فقال أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوتَ فسمعت لابواب السماء قعقعة ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لاهل السماء ضجة ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لى دعاء مكروب فسألت الله ان يوليني قتله قال الحسن فمن توضي وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب

فصل

وكثيرا مانجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرا لحسنته أو صادف الدعاء وقت إجابة ونحو ذلك فاجيبت دعوته فيظن الظان ان السر في لفظ ذلك الدعاء فيأخذه

Marfat.com

مجردا عن تلك الامور التي قارنته من ذلك الداعي وهذا كما اذا استعمل رجل دواء نافعا فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذي ينبغي فانتفع به فظن غيره ان استعمال هذا الدواء مجرداً كاف في حصول المطلوب كان غالطا وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب فيظن الجاهل ان السر للقبر ولم يعلم ان السر للاضطرار وصدق اللاجاء الى الله فاذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان افضل وأحب الى الله

فصل

والادعية والتعوذات بمنزلة السلاح والسلاح بضاربه لابحده فقط فمتى كان السلاح سلاحا تاماً لاآفة به والساعد ساعد قوي والمانع مفقود حصلت به النكاية في العدو ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير فان كان الدعاء في نفسه غير صالح أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء أو كان ثم مانع من الاجابة لم يحصل الاثر

فصل

وههنا سؤال مشهور وهو ان المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه دعا به العبد أولم يدع وان لم يكن قد قدر لم يقع سواء سأله العبد أولم يسأله فظنت طائفة صحة هذا السؤال فتركت الدعاء وقالت لافائدة فيه وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون فأن اطرد مذهبهم لوجب تعطيل جميع الاسباب فيقال لاحدهم ان كان الشبع والري قد قدرا لك فلا بد من وقوعهما أكلت أولم تأكل وإن لم يقدرا لم يقعا أكلت أولم تأكل وإن كان الولد قدر لك فلابد منه وطأت الزوجة والامة أولم تطأهما وإن لم يقدر لم يكن فلا حاجة الى التزويج والتسري وهلم جرا فهل يقال هذا عاقل أو آدمي بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الاسباب التي بها قوامه وحياته فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالانعام بل هم أضل سبيلا وتكايس بعضهم وقال الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما ولا فرق عند هذا الكيس بين الدعاء والامساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولا فرق وقالت طائفة أخري أكيس من هؤلاء بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه أمارة على قضاء الحاجة فمتى وفق العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد قضيت وهذا كما إذا رأيت غيما أسود باردا في زمن الشتاء فان ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر قالوا وهكذا حكم الطاعات مع الثواب والكفر والمعاصي مع العقاب هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لانها أسباب له

Marfat.com

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار والحرق مع الاحراق والازهاق مع القتل ليس شيء من ذلك سببا ألبتة ولا إرتباط بينه وبين مايترتب عليه الا بمجرد الاقتران العادي لا التأثير السببي وخالفوا بذلك الحس والعقل والشرع والفطرة وسائر طوائف العقلاء بل أضحكوا عليهم العقلاء والصواب ان ههنا قسما ثالثاً غير ماذكره السائل وهو أن هذا المقدور قدر بأسباب ومن أسبابه الدعاء فلم يقدر مجردا عن سببه ولكن قدر بسببه فمتى أتي العبد بالسبب وقع المقدور ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور وهذا كما قدر الشبع والري بالاكل والشرب وقدر الولد بالوطيء وقدر حصول الزرع بالبذر وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه وكذلك قدر دخول الجنة بالاعمال ودخول النار بالاعمال وهذا القسم هو الحق وهذا الذي حرمه السائل ولم يوفق له وحينئذ فالدعاء من أقوي الاسباب فاذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال لافائدة في الدعاء كما لايقال لافائدة في الاكل والشرب وجميع الحركات والاعمال وليس شيء من الاسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب ولما كان الصحابة رضى الله عنهم أعلم الامة بالله ورسوله وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم وكان عمر رضى الله عنه يستنصر به على عدوه وكان أعظم جنده وكان يقول للصحابة لستم تنصرون بكثرة وانما تنصرون من السماء وكان يقول اني لاأحمل هم الاجابة ولكن هم الدعاء فاذا ألهمت الدعاء معه فان الاجابة معه واخذ هذا الشاعر فنظمه فقال

لو لم ترد نيل ماأرجوه وأطلبه * من جود كفيك ماعلمتني الطلبا

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الاجابة فان الله سبحانه يقول إدعوني أستجب لكم وقال وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم من لم يسأل الله يغضب عليه وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته وإذا رضى الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه وقد ذكر الامام أحمد في كتاب الزهد أثراً أنا الله لاإله إلا أنا إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الامم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب الى رب العالمين وطلب مرضاته والبر والاحسان الى خلقه من أعظم الاسباب الجالبة لكل خير واضدادها من أكبر الاسباب الجالبة لكل شر فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرب اليه والاحسان الى خلقه وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول السرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الاعمال ترتيب الجزاء

Marfat.com

على الشرط والمعلول على العلة والمسبب على السبب وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له كقوله تعالى فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وقوله فلما آسفونا انتقمنا منهم وقوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا وقوله ان المسلمين والمسلمات الى قوله والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما وهذا كثير جداً وتارة ترتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيآتكم ويغفر لكم وقوله وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً وقوله فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين ونظائره وتارة يأتي بلام التعليل كقوله ليتدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب وقوله لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وتارة يأتي باداة كي التي للتعليل كقوله كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى ذلك بما قدمت أيديكم وقوله بما كنتم تعملون وبما كنتم تكسبون وقوله ذلك بأنهم كفروا بآياتنا وتارة يأتي بالمفعول لاجله ظاهراً أو محذوفاً كقوله فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى وكقوله تعالى أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين وقوله أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا أى كراهة أن تقولوا وتارة يأتي بفاء السببية كقوله فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها وقوله فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية وقوله فكذبوهما فكانوا من المهلكين ونظائره وتارة يأتي باداة لما الدالة على الجزاء كقوله فلما آسفونا انتقمنا منهم ونظائره وتارة يأتي بأن وما علمت فيه كقوله انهم كانوا يسارعون في الخيرات وقوله فى ضد هؤلاء إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين وتارة يأتي باداة لولا الدالة على ارتباط ماقبلها بما بعدها كقوله فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون وتارة يأتي بلو الدالة على الشرط كقوله ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وبالجملة فالقرآن من أوله الى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والاحكام الكونية والامرية على الاسباب بل ترتب احكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدها على الأسباب والاعمال ومن تفقه في هذه المسئلة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلا منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة فيكون توكله عجزاً وعجزه توكلا بل الفقيه كل الفقيه الذى يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ويعارض القدر بالقدر بل لا يمكن الانسان ان يعيش الا بذلك فان الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر وهكذا من وفقه الله وألهمه

Marfat.com

رشده يدفع قدر العقوبة الاخروية بقدر التوبة والايمان والاعمال الصالحة فهذا وزن المخوف في الدنيا ومايضاده فرب الدارين واحد وحكمته واحدة لايناقض بعضها بعضاً ولا يبطل بعضها بعضا فهذه المسألة من اشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها والله المستعان لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه أحدهما أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ويكون له بصيرة في ذلك بما شهده في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه من اخبار الامم قديماً وحديثاً ومن أنفع مافي ذلك تدبر القرآن فانه كفيل بذلك على أكمل الوجوه وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبنية ثم السنة فانها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني ومن صرف اليهما عنايته اكتفى بهما من غيرهما وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى كانك تعاين ذلك عياناً وبعد ذلك فاذا تأملت أخبار الامم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ماعلمته من القرآن والسنة ورأيته بتفاصيل ماأخبر الله به ووعد به وعلمت من آياته في الآفاق مايدلك على أن القرآن حق وأن الرسول حق وأن الله ينجز وعده لامحالة فالتاريخ تفصيل لجزئيات ماعرفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر

فصل

الأمر الثاني أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب وهذا من أهم الأمور فان العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة وبالتسويف بالتوبة والاستغفار باللسان تارة وبفعل المندوبات تارة وبالعلم تارة وبالاحتجاج بالقدر تارة وبالاحتجاج بالاشباه والنظراء تارة وبالاقتداء بالأكابر تارة وكثير من الناس يظن أنه لو فعل مافعل ثم قال أستغفر الله زال أثر الذنب وراح هذا بهذا وقال لي رجل من المنتسبين الى الفقه أنا أفعل ماأفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة وقد غفر ذلك أجمع كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر وقال لي آخر من أهل مكة نحن أحدنا إذا فعل مافعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً قد محي عنه ذلك وقال لي آخر قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أذنب عبد ذنباً فقال أي رب أصبت ذنباً فاغفر لي فغفر الله ذنبه ثم مكث ماشاء الله ثم أذنب ذنباً آخر فقال أي رب أصبت ذنباً فاغفر لي فقال الله عز وجل علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليصنع ماشاء وقال أنا لاأشك أن لي رباً يغفر الذنب ويأخذ به وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتكل عليها

Marfat.com

وتعلق بها بكلتا يديه واذاعوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك مايحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب كقول بعضهم وكثر مااستطعت من الخطايا اذا كان القدوم على كريم وقول بعضهم التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله وقال الآخر ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغارا لها وقال محمد بن حزم رأيت بعض هؤلاء من يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من العصمة ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر وان العبد لافعل له البتة ولا إختيار وإنما هو مجبور على فعل المعاصي ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الا رجاء وأن الايمان هو مجرد التصديق والاعمال ليست من الايمان وأن ايمان أفسق الناس كايمان جبريل وميكائيل ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم والاستشفاع بهم والتوسل الى الله بهم وسؤاله بحقهم عليه وحرمتهم عنده ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه وأن لهم عند الله مكانة وصلاحاً فلا يدعون أن يخلصوه كما يشاهد في حضرة الملوك فان الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته ومنهم من يغتر بان الله عز وجل غنى عن عذابه وعذابه لايزيد في ملكه شيئاً ورحمته له لاينقص من ملكه شيئاً فيقول أنا مضطر إلى رحمته وهو أغني الاغنياء ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً الى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها فالله أكرم وأوسع فالمغفرة لاتنقصه شيئاً والعقوبة لاتزيد في ملكه شيئاً ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكلوا عليه كاتكال بعضهم على قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال وهو لايرضى أن يكون في النار أحد من أمته وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه فانه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر فحاشا رسوله أن يرضى بما لايرضى به ربه تبارك وتعالى وكاتكال بعضهم على قوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعاً وهذا أيضاً من أقبح الجهل فان الشرك داخل في هذه الآية فانه رأس الذنوب وأساسها ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين فانه يغفر ذنب كل تائب أي ذنب كان ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة وهذا إنما أوتي صاحبه من قلة علمه وفهمه فانه سبحانه ههنا عمم وأطلق فعلم أنه أراد التائبين وفي سورة النساء خصص وقيد فقال إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فاخبر الله سبحانه أنه لايغفر الشرك وأخبر أنه يغفر مادونه ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره وكاغترار بعض الجهال بقوله

Marfat.com

تعالى يأيها الانسان ماغرك بربك الكريم فيقول كرمه وقد يقول بعضهم انه لقن المغتر حجته وهذا جهل قبيح وانما غره بربه الغرور وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسؤ وجهله وهواه وأني سبحانه بلفظ الكريم وهو السيد العظيم المطاع الذي لاينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه فوضع هذا المغتر الغرور فى غير موضعه واغتر بمن لاينبغي الاغترار به وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار لايصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وقوله أعدت للكافرين ولم يدر هذ االمغتران قوله فأنذرتكم ناراً تلظي هي النار مخصوصة من جملة دركات جهنم ولوكانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لايدخلها بل قال لايصلاها الاالاشقى ولايلزم من عدم صليها عدم دخولها فان الصلى أخص من الدخول ونفي الاخص لايستلزم نفى الاعم ثم هذا المغترلو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها فلايكون مضمونا له ان يجنبها وأما قوله في النار أعدت للكافرين فقد قال في الجنة أعدت للمتقين ولاينافى إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفساق والظلمة ولا ينافى إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من فى قلبه أدني مثقال ذرة من ايمان ولم يعمل خيرا قط وكأغترار بعضهم على صوم يوم عاشوراء أويوم عرفة حتي يقولل بعضهم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ويبقى صوم عرفة زيادة في الاجر ولم يدر هذا المغرأن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء وهي إنما تكفر مابينهما اذا اجتنبت الكبائر فرمضان والجمعة الى الجمعة لايقويا على تكفير الصغائر الا مع انضمام ترك الكبائر اليها فيقوي مجموع الامرين على تكفير الصغائر فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها هذا محال على أنه لايمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء يكفر لجميع ذنوب العام على عمومه ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير فاذالم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الاصرار وتعاونا على عموم التكفير كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم فعلم أن جعل الشئ سبباً للتكفير لايمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوي وأتم منه مع انفراد أحدهما وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوي وأتم وأشمل وكاتكال بعضهم على قوله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء يعني ما كان في ظنه فانا فاعله به ولاريب أن حسن الظن إنما يكون مع الاحسان فان المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه ولايخلف وعده ويقبل توبته واما المسئ المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فان وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه

من حسن الظن بربه وهذا موجود فى الشاهد فان العبد الآبق العاصي الخارج عن طاعة سيده لايحسن الظن به ولايجامع وحشة الاساءة إحسان الظن ابداً فان المسيء مستوحش بقدر إساءته وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له كما قال الحسن البصري ان المؤمن أحسن الظن بربه فاحسن العمل وان الفاجر أساء الظن بربه فاساء العمل فكيف يكون يحسن الظن بربه من هو شارد عنه حال مرتحل فى مساخطه وما يغضبه متعرض للعنته قد هان حقه وامره عليه فاضاعه وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة وعادى اولياءه ووالى اعداءه وجحد صفات كماله وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله وظن بجهله ان ظاهر ذلك ضلال وكفر وكيف يحسن الظن به من يظن أنه لايتكلم ولايأمر ولاينهى ولايرضى ولا يغضب وقد قال الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فاصبحتم من الخاسرين فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لايعلم كثيراً مما يعملون كان هذا اساءة لظنهم بربهم فارداهم ذلك الظن وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ووصفه بمالا يليق به فاذا ظن هذا أنه يدخله الجنه كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه وتسويلا من الشيطان الاحسان ظن بربه فتأمل هذا الموضع وتأمل شدة الحاجة اليه وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بانه ملاقى الله وأن الله يسمع ويري مكانه ويعلم سره وعلانيته ولا يخفى عليه خافية من أمره وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ماعمل وهو مقيم على مساخطه مضيع لاوامره معطل لحقوقه وهو مع هذا يحسن الظن به وهل هذا الامن خدع النفوس وغرور الاماني وقد قال أبو أمامة بن سهل بن حليف دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت لو رأيتما رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض له وكانت عندي ستة دنانير أوسبعة فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أفرقها قالت فشغلني وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتي عافاه الله ثم سألني عنها فقال مافعلت أكنت فرقت الستة الدنانير فقلت لا والله لقد كان شغلني وجعك قالت فدعا بها فوضعها في كفه فقال ماظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده وفي لفظ ماظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده فيالله ماظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله اذا لقوه ومظالم العباد عندهم فان كان ينفعهم قولهم حسناً ظننا بك لم يعذب ظالم ولا فاسق فليصنع العبد ماشاء وليرتكب كل مانهاه الله عنه وليحسن ظنه بالله فان النار لاتمسه فسبحان الله مايبلغ الغرور بالعبد وقد قال ابراهيم لقومه افكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين أي ماظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن

Marfat.com

بالله هو حسن العمل نفسه فان العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه فالذي حمله على العمل حسن الظن فكلما حسن ظنه حسن عمله والا فحسن الظن مع اتباع الهوي عجز كما في الترمذي والمسند من حديث شداد ابن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمني على الله وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة وإنما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتي احسان الظن فان قيل بل يتأتي ذلك ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده وان رحمته سبقت غضبه وانه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو قيل الامر هكذا والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به فانه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق العقوبة فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر والمؤمن والكافر ووليه وعدوه فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه وتعرض للعنته واوقع في محارمه وانتهك حرماته بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع وبدل السيئة بالحسنة واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة ثم أحسن الظن فهذا حسن ظن والاول غرور والله المستعان ولا تستبطل هذا الفصل فان الحاجة اليه شديدة لكل أحد ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به قال الله تعالى ان الذين امنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله فجعل هؤلاء أهل الرجا لا الظالمين والفاسقين وقال تعالي ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم فاخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها فالعالم يضع الرجاء مواضعه والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه

فصل

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه وضيعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ومن اعتمد على العفو مع الاصرار على الذنب فهو كالمعاند وقال معروف رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق وقال بعض العلماء من قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا وقيل للحسن نراك طويل البكاء فقال أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي وسأل رجل الحسن فقال يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تنقطع فقال والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى

Marfat.com

تلحقك المخاوف وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق اقتاب بطنه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه فيطوف به أهل النار فيقولون يافلان ماأصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه وذكر الامام أحمد من حديث أبي رافع قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع فقال أف لك أف لك فظننت أنه يريدني قال لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً الى آل فلان فغل نمرة فدرع الآن مثلها من نار وفي مسنده أيضاً من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من هؤلاء قالوا خطباء من أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون وفيه أيضاً من حديثه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء ياجبريل فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم وفيه أيضاً عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يامقلب القلوب والابصار ثبت قلبي على دينك فقلنا يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم ان القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء وفيه أيضا عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لم أر ميكائيل ضاحكا قط قال ماضحك منذ خلقت النار وفي صحيح مسلم عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتي بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له يابن آدم هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يارب ويؤتي باشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له يابن آدم هل رأيت بؤسا قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله يارب مامر بي بؤس قط ولارأيت شدة قط وفي المسند من حديث البراء بن عاذب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الانصار فانتهينا الى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الارض فرفع رأسه فقال استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلثا ثم قال ان العبد المؤمن اذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كان وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان أهل الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أخرجي ايتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فاذا أخذها

Marfat.com

لم يدعوها في يده طرفة عين حتي يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة الا قالوا ماهذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان باحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به الى سماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التي تليها حتي ينتهي به الي السماء السابعة فيقول الله عز وجل أكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه الى الارض فاني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها اخرجهم تارة اخري قال فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربي الله عز وجل فيقولان له مادينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ماهذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو محمد رسول الله فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله عز وجل فآمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوا له من الجنة والبسوه من الجنة وافتحوا له باباً الى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة ثم رب أقم الساعة حتي أرجع الي أهلي ومالي قال وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتي يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب قال فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبتل فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة الا قالوا ماهذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بن فلان باقبح أسمائه التى كان يسمى بها في الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتفتح لهم أبواب السما، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط فيقول الله عز وجل أكتبوا كتابه في سجين في الارض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لاأدري فيقولان له مادينك فيقول هاه هاه لاأدري فيقولان له ماهذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لاأدرى فينادي منا دمن السماء أن كذب عبدي فافرشوا له من النار والبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه

Marfat.com

قبره حتي تختلف فيه اضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك الوجه الذى يجيء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لاتقم الساعة وفي لفظ لاتقم الساعة ايضا ثم يقيض له أعمي أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبلا كان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخري فيصيح صيحة يسمعها كل شيء الا الثقلين قال البراء ثم يفتح له باب الى النار ويمهد له من فرش النار وفي المسند أيضاً عنه قال بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أبصر بجماعة فقال على ما اجتمع هؤلاء قيل على قبر يحفرونه ففزع رسول الله صلي الله عليه وسلم فبدر بين يدي أصحابه مسرعا حتي انتهي الي القبر فجثي على ركبتيه فاستقبلته من بين يديه لأنظر مايصنع فبكى حتي بل الثري من دموعه ثم أقبل علينا فقال أي إخواني لمثل هذا اليوم فاعدوا وفي المسند من حديث بريدة قال خرج الينا رسول الله صلي الله عليه وسلم يوما فنادي ثلاث مرات ياأيها الناس أتدرون مامثلى ومثلكم فقالوا الله ورسوله أعلم فقال إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يتراءى لهم فابصر العدو فاقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فاهوي بثوبه أيها الناس أتيتم أيها الناس أتيتم ثلاث مرات وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم كل ماأسكر حرام وإن على الله عز وجل عقداً لمن شرب المسكر ان يسقيه من طينة الخبال قيل وما طينة الخبال قال عرق أهل النار أو عصارة أهل النار وفي المسند أيضاً من حديث أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أري مالاترون وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع الا وعليه ملك يسبح الله ساجدا لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجارون الى الله تعالى قال أبوذر والله لوددت أني شجرة تعضد وفي المسند أيضا من حديث حذيفة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فلما انتهينا الي القبر قعد على ساقيه فجعل يردد بصره فيه ثم قال يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ويملأ على الكافر ناراً والحمائل عروق الأنثيين وفي المسند أيضا من حديث جابر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سعد بن معاذ حين توفى فلما صلي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع في قبره وسوى عليه سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبحنا طويلا ثم كبر فكبرنا فقيل يارسول الله لما سبحت ثم كبرت فقال لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على

Marfat.com

أعناقهم فان كانت صالحةقالت قدموني وان كانت غير صالحة قالت ياويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شئ الا الانسان ولو سمعها الانسانلصعق وفي مسند أحمد من حديث أبي أمامةقال قل رسول الله صلى اللهعليه وسلم تدنوا الشمس يوم القيامةعلى قدر ميل ويزاد في حرها كذاوكذا تغلي منها الرؤس كما تغلي القدور يعرقون فيها على قدر خطاياهم منهم من يبلغ الى كعبه ومنهم من يبلغ الى ساقيه ومنهم من يبلغ الى وسطه ومنهم من يلجمه العرق وفيه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ فقال أصحابه كيف نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وفي المسند أيضا عن ابن عمر يرفعه من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته لقى الله وهو عليه غضبان وفي الصحيحين عنه قال قال رسول الله صلي اللهعليه وسلم ان المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم احيوا ماخلقتم وفيه أيضا عنه عن النبي صلى اللهعليه وسلم إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده من الغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتي يبعثك الله عز وجل يوم القيامة وفيهما أيضا عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار فى النارجيء بالموت حتي يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى مناد ياأهل الجنةخلود ولا موت وياأهل النار خلود ولا موت فيزدادأهل الجنة فرحا الي فرحهم ويزداد أهلالنار حزنا الي حزنهم وفى المسندعنه قال من اشتري ثوبا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلوة مادام عليه ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ثم قال صمتا إن لم أكن سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقوله وفيه عن عبد اللهبن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ترك الصلاة سكراً مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها ومن ترك الصلوة سكرا أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال قيل وما طينة الخبال يارسول الله قال عصارة أهل جهنم وفيه أيضاً عنه مرفوعا من شرب الخمر شربة لم تقبل له صلوة أربعين صباحا فان تاب تاب الله عليه فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال فان عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من روغة الخبال يوم القيامة وفي المسند أيضا من حديث أبي موسى قال قال رسول الله صلى اللهعليه وسلم من مات مدمناً للخمر سقاه الله من نهر الغوطة قيل ومانهر الغوطة قال نهر يجري من فروج المؤمنات يؤذي أهل النار ريح فروجهن وفيه أيضا عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فاماعرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الايدي فآخذ بيمنه وآخذ بشماله وفي المسند أيضاً من

Marfat.com

حديث بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتي يهلكنه وضرب لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطاق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وانضجوا ماقذفوا فيها وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم يضرب الجسر على جهنم فأكون أول من يجوز ودعوى الرسول يومئذ اللهم سلم سلم وحافتيه كلاليب مثل شوك السعدان يختطف الناس باعمالهم فمنهم الموثق بعمله ومنهم المخدوش ثم ينجوا حتى اذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد ان يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لاإله إلاالله أمر الملائكة أن يخرجوه فيعرفونه بعلامة أثرالسجود وحرم الله على النار ان تأكل من ابن آدم أثرالسجود فيخرجونهم وقدامتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحيوة فينبتون نبات الحبة في حميل السيل وفي صحيح مسلم عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة رجل استشهد فاتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها قال قاتلت فيك حتي قتلت قال كذبت ولكن قاتلت ليقال هو جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتي ألقى في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فاتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها قال تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن فقال كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم فقدقيل وقرأت القرآن ليقال هو قاريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتي ألقي فى النار ورجل وسع الله عليه رزقه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها فقال ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقدقيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار وفي لفظ فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة وسمعت شيخ الاسلام يقول كما أن خير الناس الانبياء فشر الناس من تشبه بهم من الكذابين وأدعي أنه منهم وليس منهم فخير الناس بعدهم العلما والشهداء والصديقون والمخلصون فشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلي الله عليه وسلم من كانت عنده لأخيه مظلمة فى مال أو عرض فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم فان كانت له حسنات أخذ من حسناته فاعطيها هذا والا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح في النار وفي الصحيح من حديث أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم من أخذ شبراً من الارض بغير حقه خسف به يوم القيامة الى سبع أرضين وفي الصحيحين عنه قال قال

Marfat.com

رسول الله صلي الله عليه وسلم ناركم هذه التي توقدبنوا آدم جزء واحد من سبعين جزأ من نارجهنم قالوا والله ان كانت لكافية قال فانها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلهن مثل حرها وفي المسند عن معاذ قال أوصاني رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال لاتشرك بالله شيئاً وان قتلت أو حرقت ولا تعقن والديك وان أمراك ان تخرج من مالك وأهلك ولا تتركن صلوة مكتوبة متعمدا فان من ترك صلوة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ولا تشرب خمراً فانه رأس كل فاحشة وإياك والمعصية فان المعصية تحل سخط الله والاحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ماذكرنا فلا ينبغى لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها ويرسل نفسه في المعاصي ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن قال أبو الوفاء بن عقيل أحذر ولا تغتر فانه قطع اليد في ثلاثة دراهم وجلد الحد في مثل رأس الابرة من الخمر وقد دخلت المرأة النار في هرة واشتعل الشملة ناراً على من غلها وقد قتل شهيداً وقال الامام أحمد ثنا معاوية ثنا الاعمش عن سليمان بن مسيرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال دخل رجل الجنة في ذباب ودخل رجل النار فى ذباب قالوا وكيف ذلك يارسول الله قال مر رجلان على قوم لهم صنم لايجوزه أحد حتي يقرب له شيئاً فقال لأحدهما قرب فقال ليس عندي شيء قالوا قرب ولو ذباباً فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار وقالوا للآخر قرب فقال ما كنت أقرب شيئا دون الله عزوجل فضربوا عنقه فدخل الجنة وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها فى النار أبعد مابين المشرق والمغرب وربما اتكل بعض المغترين على مايرى من نعم الله عليه فى الدنيا وأنه يغتربه ويظن أن ذلك من محبة الله له وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك فهذا من الغرور قال الامام أحمد ثنا يحي بن غيلان ثنا رشد بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا رأيت الله عزوجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه مايحب فانما هو استدراج ثم تلى قوله عزوجل فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتي إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون وقال بعض السلف إذا رأيت الله عز وجل يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره فانما هو استدراج منه يستدرجك به وقد قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكؤن وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله فاما الانسان إذا مابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا مابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا أي ليس كل من أنعمته ووسعت

Marfat.com

عليه رزقه أكون قدأكرمته وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقهأكون قد اهنته بل أبتلى هذا بالنعم وأكرم هذا بالابتلاء وفي جامع الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطي الايمان إلا من يحب وقال بعض السلف رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لايعلم ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لايعلم ورب مغرور بستر الله عليه وهو لايعلم

فصل

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها فأثرها على الآخرة ورضي بها من الآخرة حتى يقول بعض هؤلاء الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد أنفع من النسيئة ويقول بعضهم درة منقودة ولا درة موعودة ويقول آخر منهم لذات الدنيا متيقنة ولذات الآخرة مشكوك فيها ولا أدع اليقين للشك وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله والبهائم العجم أعقل من هؤلاء فان البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت وهؤلاء يقدم أحدهم على مافيه عطبه وهو ينظر اليه وهو بين مصدق ومكذب فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم وإن لم يؤمن بالله ورسوله فابعد له وقول هذا القائل النقد خير من النسيئة فجوابه انه اذا تساوي النقد والنسيئة فالنقد خير وان تفاوتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير فكيف والدنيا كلها من أولها الى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة كما في مسند أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماالدنيا في الآخرة الا كمايدخل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع فايثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل واذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها الى الآخرة فما مقدار عمر الانسان بالنسبة الى الآخرة فأيما أولى بالعاقل إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة وحرمان الخير الدائم في الآخرة أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب ليأخذ مالا قيمة له ولا حظر له ولا نهاية لعدده ولا غاية لأمده وأما قول الآخر لاأترك متيقناً لمشكوك فيه فيقال له إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله أو تكون على اليقين من ذلك فان كنت على اليقين فما تركت الا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب لأنه متيقن لاشك فيه ولا انقطاع له وان كنت على شك فتأمل آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به عنه وتجرد وقم لله ناظراً أو مناظراً حتى يتبين لك أن ماجاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لاشك فيه وان خالق هذ العالم هو رب

السموات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ماأخبرت به رسله عنه ومن نسبه الى غير ذلك فقد شتمه وكذبه وأنكر ربوبيته وملكه اذ من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزا أو جاهلا لايعلم شيئاً ولا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهي ولا يثيب ولا يعاقب ولا يعز من يشاء ولا يذل من يشاء ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها ولا يعتني باحوال رعيته بل يتركهم سدي ويخليهم هملا ولهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين اليه واذا تأمل الانسان حاله من مبدأ كونه نطفة الى حين كماله واستوائه تبين له ان من عني به هذه العناية ونقله الى هذه الأحوال وصرفه في هذه الأطوار لايليق به أن يهمله ويتركه سدى لا يأمره ولا ينهاه ولا يعرفه بحقوقه عليه ولا يثيبه ولا يعاقبه ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل مايبصره ومالا يبصره دليلا له على التوحيد والنبوة والمعاد وأن القرآن كلامه وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك فى كتاب إيمان القرآن عند قوله فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون إنه لقول رسول كريم وذكرنا طرفا من ذلك عند قوله وفى أنفسكم أفلا تبصرون وأن الانسان دليل نفسه على وجود خالقه وتوحيده وصدق رسله وإثبات صفات كماله فقد بان بان المضيع مغرور على التقديرين تقدير تصديقه ويقينه وتقدير تكذيبه وشكه فان قلت كيف يجتمع التصديق الجازم الذى لاشك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل وهل في الطباع البشرية ان يعلم العبد انه مطلوب غدا الى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة أو يكرمه أتم كرامة ويبيت ساهيا غافلا لايتذكر موقفه بين يدي الملك ولا يستعد له ولا يأخذ له أهبة قيل هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر هذا الخلق واجتماع هذين الامرين من أعجب الاشياء وهذا التخلف له عدة أسباب أحدها ضعف العلم ونقصان اليقين ومن ظن أن العلم لايتفاوت فقوله من أفسد الاقوال وأبطلها وقد سأل ابراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتي عيانا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيبا شهادة وقد روى أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ليس الخبر كالمعاين فاذا اجتمع الى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب كثيرا من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده وانضم الى ذلك تقاضى الطبع وغلبات الهوي واستيلاء الشهوة وتسويل النفس وغرور الشيطان واستبطاء الوعد وطول الامل ورقدة الغفلة وحب العاجلة ورخص التأويل والف العوائد فهناك لايمسك الايمان في القلب الا الذي يمسك السموات والارض أن تزولا وبهذا السبب يتفاوت الناس في الايمان والاعمال حتى ينتهي الى أدني مثقال ذرة في القلب وجماع هذه الاسباب يرجع الى ضعف

Marfat.com

البصيرة والصبر ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون

فصل

وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور وان حسن الظن ان حمل على العمل وحث عليه وساعده وساق اليه فهو صحيح وان دعا الى البطالة والانهماك في المعاصى فهو غرور وحسن الظن هو الرجاء فمن كان رجاؤه حاذباً له على الطاعة زاجراً له عن المعصية فهو رجاء صحيح ومن كانت بطالته رجاء ورجاؤه بطالة وتفريطاً فهو المغرور ولو أن رجلا كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ماينفعه فاهملها ولم يبذرها ولم يحرثها وأحسن ظنه بأنه يأتى من مغلها مايأتي من غير حرث وبذر وسقي وتعاهد الارض لعده الناس من أسفه السفهاء وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاءه بانه يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام عليه وأمثال ذلك فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه في الفوز بالدرجات العلي والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب الى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه وبالله التوفيق وقد قال الله تعالى ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله فتأمل كيف جعل رجاءهم باتيانهم بهذه الطاعات وقال المغترون ان المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لاوامره الباغين على عباده المتجرئين على محارمه أولئك يرجون رحمة الله وسر المسئلة ان الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الاتيان بالاسباب التي اقتضتها حكمة الله فى شرعه وقدره وثوابه وكرامته فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لايكله اليها وأن يجعلها موصلة الى ماينفعه ويصرف مايعرضها ويبطل أثرها

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور أحدها محبته مايرجوه الثاني خوفه من فواته الثالث سعيه فى تحصيله بحسب الامكان وأما رجاء لايقارنه شيء من ذلك فهو من باب الاماني والرجاء شيء والاماني شيء آخر فكل راج خائف والسائر على الطريق اذا خاف أسرع السير مخافة الفوات وفى جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة وهو سبحانه كما جعل الرجاء لاهل الاعمال الصالحة فكذلك جعل الخوف لاهل الاعمال الصالحة فعلم ان الرجاء والخوف النافع هو ماقترن به العمل

Marfat.com

قال الله تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لايشركون والذين يؤتون ماأتوا وقلوبهم وجلة إنهم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون وقد روى الترمذى فى جامعه عن عائشة رضى الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقلت أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون فقال لايابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لايتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً والله سبحانه وصف أهل السعادة بالاحسان مع الخوف ووصف الاشقياء بالاساءة مع الامن ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم فى غاية العمل مع غاية الخوف ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والامن فهذا الصديق يقول وددت اني شعرة في جنب عبد مؤمن ذكره أحمد عنه وذكر عنه أيضاً انه كان يمسك بلسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد وكان يبكى كثيراً ويقول أبكوا فان لم تبكوا فتباكوا وكان اذا قام الى الصلاة كانه عود من خشية الله عز وجل وأتي بطائر يقلبه ثم قال ماصيد من صيد ولا قطعت من شجرة(١) الا بما ضيعت من التسبيح ولما احتضر قال لعائشة يابنية اني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحلاب وهذا العبد فاسرعى به إلى بن الخطاب وقال والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد وقال قتادة بلغني ان أبا بكر قال ليتني(٢) خضرة تأكلني الدواب وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله إن عذاب ربك لواقع فبكى وإشتد بكاؤه حتي مرض وعادوه وقال لابنه وهو في الموت ويحك ضع خدي على الارض عسا(٣) أن يرحمني ثم قال ويل أمي إن لم يغفر الله لى ثلاثا ثم قضى وكان يمر بالآية فى ورده بالليل فتخنقه فيبقي في البيت أياما ويعاد يحسبونه مريضاوكان فى وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من البكاء وقال له ابن عباس مصر الله بك الامصار وفتح بك الفتوح وفعل وفعل فقال وددت اني أنجو لاأجر ولا وزر وهذا عثمان بن عفان كان اذا وقف على القبر يبكى حتى تبل لحيته وقال لو انني بين الجنة والنار لاأدري الى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم الى أيتهما أصير وهذا على بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه وكان يشتد خوفه من اثنتين طول الامل واتباع الهوي قال فاما طول الامل فينسي الآخرة وأما إتباع الهوي فيصد عن الحق ألا وإن الدنيا قدولت مدبرة والآخرة مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل وهذا ابو الدرداء

---

(١) عضد شجر (٢) وددت أني (٣) لعل الله

Marfat.com

كان يقول إن أشدماأخاف على نفسى يوم القيامة أن يقال لى ياأبا الدرداء قدعلمت فكيف عملت فيما علمت وكان يقول لوتعلمون ماأنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ولاشربتم شرابا على شهوة ولادخلتم بيتا تستظلون فيه ولخرجتم الى الصعدات تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل وهذا عبدالله بن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالى من الدموع وكان أبو ذر يقول ياليتني كنت شجرة تعضدوددت اني لم اخلق وعرضت عليه النفقة فقال عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها ومحرر يخدمنا وفضل عباءة وإني أخاف الحساب فيها وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتي على هذه الآية أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات جعل يرددها ويبكى حتي أصبح وقال أبوعبيدة بن الجراح وددت أني كبش فذبحني أهلى وأكلوا لحمي وحسوا مرقى وهـذا باب يطول تتبعه قال البخاري فى صحيحه باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهولايشعر وقال ابراهيم التيمي ماعرضت قولى على عملي الاخشيت أن أكون مكذبا وقال بن أبي مليكة ادركت ثلثين من اصحاب النبي صلي الله عليـه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحـد يقول انه على ايمان جبريل وميكائيل ويذكر عن الحسن ماخافه الامؤمن ولا أمنه الا منافق وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة أنشدك الله هل سمانى لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني في المنافقين فيقول لاولا أزكى بعدك احداً فسمعت شيخنا يقول مراده اني لاأبرئ غـيرك من النفاق بل المراد انى لاأفتح على هذا الباب فكل من سألني هل سمانى لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزكيه قلت وقريب من هذا قول النبي صلى الله عليـه وسلم للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب سبقك بها عكاشة ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ولكن لودعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم فكان الامساك أولى والله أعلم

فصل

فانرجع الى ما كنا فيه مما ذكرنا من ذكر دواء الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصى تضر ولاشك أن ضررها فى القلوب كضرر السموم في الابدان على إختلاف درجاتها في الضرر وهـل فى الدنيا والآخرة شرور وداء الا سببه الذنوب والمعاصى فماالذى أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور الى دار الآلام والاحزان والمصائب وماالذي أخرج إبليس من ملكوت السماء

Marfat.com

وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها وباطنه أقبح من صورته وأشنع وبدل بالقرب بعداً وبالرحمة لعنة وبالجمال قبحاً وبالجنة نارا تلظي وبالايمان كفراً وبموالات الولى الحميد أعظم عداوة ومشاقة وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش وبلباس الايمان لباس الكفر والفسوق والعصيان فهان على الله غاية الهوان وسقط من عينه غاية السقوط وحل عليه غضب الرب تعالى فاهواه ومقته أكبر المقت فأرداه فصار قوادا لكل فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة فعياذاً بك اللهم من مخالفة أمرك وإرتكاب نهيك وما الذي أغرق أهل الارض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى القتهم موتي على وجه الارض كأنهم أعجاز نخل خاوية ودمرت مامر عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للامم الى يو القيامة وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتي قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم وماالذي رفع قري اللوطية حتي سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فاهلكم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة مالم يجمعه علي أمة غيرهم ولاخوانهم أمثالها وما هي من الظالمين ببعيد وما الذى أرسل علي قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤسهم امطر عليهم نارا تلظي وما الذى أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم الي جهنم فالاجساد للغرق والارواح للحرق وما الذى خسف بقارون وداره ومآله وأهله وماالذي أهلك القرون من بعد نوح بانواع العقوبات ودمرها تدميرا وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتي خمدوا عن آخرهم وماالذي بعث على بنى إسرائيل قوما أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فاهلكوا ماقدروا عليه وتبروا ماعلو تتبيرا وماالذي سلط عليهم بانواع العذاب والعقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد ومرة بجور الملوك ومرة بمسخهم قردة وخنازير وآخر ذلك اقسم الرب تبارك وتعالى ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب قال الامام أحمد ثنا الوليد بن مسلم ثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال لما فتحت قبرس فرق بين أهلها فبكى بعضهم الى بعض فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكى فقلت ياأبا الدرداء مايبكيك في يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله فقال ويحك ياجبير ماأهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا الى ماترى وقال على بن الجعد نا شعبة عن عمرو ابن مرة قال سمعت

Marfat.com

ابا البختري يقول اخبرني من سمع النبي صلي الله عليه وسلم يقول لن يهلك الناس حتي يعذروا من أنفسهم وفي مسند أحمد من حديث أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ظهرت المعاصي فى أمتي عمهم الله بعذاب من عنده فقلت يارسول الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون قال بلى قلت كيف يصنع باؤلئك قال يصيبهم ماأصاب الناس ثم يصيرون الى مغفرة من الله ورضوان وفى مراسيل الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم لاتزال هذه الامة بخير يد الله وفى كنفه مالم يتال قراؤها امراءها ومالم يزك صلحاؤها فجارها ومالم يهن خيارها شرارها فاذاهم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ثم سلط عليهم جبابرتهم فيسومونهم سوء العذاب ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر وفي المسند من حديث ثوبان قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وفيه أيضاً عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك أن تداعي عليكم الامم من كل أفق كما تداعي الأكلة على قصعتها قالنا يارسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل تنزع المهابة من قلوب عدوكم وتجعل في قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن قال حب الحياة وكراهة الموت وفى المسند من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي مررت بقوم لهم اظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء ياجبريل فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم وفى جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج في آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين ويلبسون للناس مسوك الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل أبي تغترون وعلي تجترؤن فبي حلفت لابعثن على اؤلئك فتنة تدع الحليم منهم حيرانا وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال قال على يأتي على الناس زمان لايبقى من الاسلام إلا إسمه ولا من القرآن إلا رسمه مساجدهم يومئذ عامرة وهي خراب من الهدى علماؤهم أشر من تحت أديم السماء منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه اذا ظهر الزنا والزنا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها وفى مراسيل الحسن اذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل وتحابوا بالالسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا بالارحام لعنهم الله عز وجل عند ذلك فاصمهم وأعمى أبصارهم وفي سنن ابن ماجة من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال يامعشر المهاجرين خمس خصال وأعوذ بالله أن تدركوهن ماظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والاوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين

Marfat.com

مضوا ولانقص قوم المكيال والميزان إلاابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ومامنع قوم زكاة اموالهم إلامنعوا القطر من السماء فلولا البهائم لم يمطروا ولاخفر قوم العهد إلاسلط الله عليهم عدوهم من غيرهم فاخذوا بعض مافي ايديهم ومالم تعمل أئمتهم بما انزل الله فى كتابه إلاجعل الله بأسهم بينهم وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيراً فقال ياهذا اتق الله فاذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كانه لم يره على خطيئة بالامس فلماراي الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون والذى نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق اطراً اوليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كالعنهم وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال أوحي الله الى يوشع بن نون اني مهلك من قومك أربعين الفاً من خيارهم وستين الفاً من شرارهم قال يارب هؤلاء الاشرار فمابال الاخيار قال إنهم لم يغضبوا لغضبي وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال بعث الله عز وجل ملكين الى قرية ان دمراها بمن فيها فوجدا فيها رجلا قائما يصلى فى مسجد فقالا يارب ان فيها عبدك فلانا يصلي فقال الله عز وجل دمراها ودمراه معهم فانه ماتمعر وجهه(١) في قط وذكر الحميدى عن سفيان بن عيينة قال حدثني سفيان بن سعيد عن مسعر ان ملكا أمر أن يخسف قرية فقال يارب ان فيها فلاناً العابد فاوحي الله اليه ان به فابدأ فانه لم يتمعر وجهه في ساعة قط وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه قال لما أصاب داود الخطيئة قال يارب اغفر لى قال قد غفرت لك والزمت عارها بني اسرائيل قال يارب كيف وأنت الحكم العدل لاتظلم احداً أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيرى فاوحي الله اليه انك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالانكار وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرجل ياام المؤمنين حدثينا عن الزلزلة(٢) فقالت إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمور وضربوا بالمعازف غار الله عز وجل في سمائه فقال للارض تزلزلى بهم فان تابوا ونزعوا وإلاأهدمها عليهم قال ياأم المؤمنين أعذاباً لهم قالت بل موعظة ورحمة للمؤمنين ونكالا وعذاباً وسخطاً على الكافرين فقال أنس ماسمعت حديثا بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم أنا أشد فرحا مني بهذا الحديث وذكر ابن أبي الدنيا حديثا مرسلا ان الارض تزلزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه

---

(١) نسخه لم يتمعر (٢) نسخه كلام في سبب الزلزلة

Marfat.com

وسلم فوضع يده عليها ثم قال(١) اسكني فانه لم يأن لك بعد ثم التفت الى أصحابه(٢) فقال إن ربكم ليستعتبكم فاعتبوه ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال يا أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة الا عن شئ أحدثتموه والذى نفسي بيده لان عادت لا أساكنكم فيها ابداً وفي مناقب عمر لابن أبي الدنيا إن الارض تزلزلت على عهد عمر فضرب يده (٣) عليها وقال مالك مالك أما انها لو كانت القيامة حدثت أخبارها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر الا وهو ينطق وذكر الامام احمد عن صفية قالت زلزلت(٤) المدينة على عهد عمر فقال يا ايها الناس ما هذا ما اسرع ما احدثتم لان عادت لا تجدوني فيها وقال كعب انما زلزلت الارض اذا عمل فيها بالمعاصى فترعد(٥) فرقا من الرب عزوجل أن يطلع عليها وكتب عمر بن عبد العزيز الى الامصار أما بعد فان هذا الرجف شئ يعاتب(٦) الله عزوجل به العباد وقد كتبت إلى سائر الامصار يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا فمن كان عنده شئ فليتصدق به فان الله عزوجل قال قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى وقولوا كما قال آدم ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وقولوا كما قال نوح وإلا تغفر لى وترحمني أكن من الخاسرين وقولوا كما قال يونس لا إله إلا انت سبحانك إني كنت من الظالمين وقال الامام أحمد حدثنا اسود بن عامر ثنا ابو بكر عن الاعمش عن عطاء بن ابي رباح عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة (٧) واتبعوا اذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلا يرفعه عنهم حتي يراجعوا دينهم ورواه أبو داود باسناد حسن وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال لقد رأيتنا وما أحد أحق بدينار ودرهمه من اخيه المسلم ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة وتركوا الجهاد في سبيل الله وأخذوا اذناب البقر أنزل الله عليهم من السماء بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم وقال الحسن أن العينة والله ما هي الا عقوبة من الله عزوجل على الناس ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل الى ما يصنع بهم بختنصر فقال بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا وقال بخت نصر لدانيال ما الذي سلطني على قومك قال عظم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله عزوجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الاطفال

---

(١) نسخه فقال (٢) الصحابة (٣) بيده (٤) تزلزلت (٥) فرعة (٦) يعاقب

(٧) العينة هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم الى أجل مسمى ثم يشتريها باقل من الثمن الاول

Marfat.com

وأعقم أرحام النساء فتنزل النقمة وليس فيهم مرحوم وذكر عن مالك بن دينار قال قرأت(١) في الحكمة يقول الله عز وجل أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك بيدى فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا انفسكم بسب الملوك ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم وفي مراسيل الحسن إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم الى حلمائهم وفيئهم عند سمحائهم واذا أراد بقوم شراً جعل أمرهم الى سفائهم وفيئهم عند بخلائهم وذكر الامام أحمد وغيره عن قتادة قال يونس يارب أنت في السماء ونحن في الارض فما علامة غضبك من رضاك قال إذا استعملت عليكم خياركم فهو من علامة رضائي عليكم وإذا استعملت عليكم شراركم فهو من علامة سخطي عليكم وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال أوحى الله الى بعض الانبياء إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني وذكر أيضاً من حديث ابن عمر يرفعه والذى نفسي بيده لا تقوم الساعة حتي يبعث الله أمراء كذبة ووزراء فجرة وأعوانا خونة وعرفاء ظلمة وقراء فسقة سيماهم سيما الرهبان وقلوبهم أنتن من الجيف أهواؤهم مختلفة فيتيح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهاوكون(٢) فيها والذى نفس محمد بيده لينقضن الاسلام عروة عروة حتي لا يقال الله الله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم أشراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم وفي معجم الطبراني وغيره من حديث سعيد بن جبير عن بن عباس قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ما طفف قوم كيلا ولا بخسوا ميزانا الا منعهم الله عز وجل القطر وما ظهر في قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت وما ظهر في قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون ولا ظهر في قوم القتل يقتل بعضهم بعضاً إلا سلط الله عليهم عدوهم ولا ظهر في قوم عمل(٣) قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف وما ترك قوم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم ورواه ابن أبي الدنيا من حديث ابراهيم بن الاشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت دخل علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقد حفزه النفس فعرفت في وجهه أن قد حفزه شئ فما تكلم حتى توضأ وخرج فالتقت بالحجرة(٤) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أيها الناس اتقوا ربكم إن الله عز وجل يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم وتستنصروني فلا أنصركم وتسألوني فلا أعطيكم وقال العمرى الزاهد أن من غفلتك عن نفسك وإعراضك عن الله أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه ولا تأمر فيه

(١) نسخه رأيت (٢) أي يقعون فيها من غير مبالاة (٣) فعل (٤) في الحجرة

Marfat.com

ولاتنهى عنه خوفا ممن لايملك لنفسه ضراً ولانفعاً وقال من ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه وذكر الامام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال قال أبو بكر الصديق يايها الناس أنكم تتلون هذه الآية وأنكم تضعونها على غير مواضعها ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه وفي لفظ إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده وذكر الاوزاعى عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخفيت الخطيئة فلاتضر إلا صاحبها وإذا ظهرت فلم تغير عامة وذكر الامام احمد عن عمر بن الخطاب يوشك القري أن تخرب وهي عامرة قيل وكيف تخرب وهي عامرة قال إذا علا فجارها على أبرارها وساد القبيلة منافقها وذكر الاوزاعى عن حسان بن أبي عطية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ستظهر شرار أمتى على خيارها حتي يستخفى المؤمن فيهم كما يستخفى المنافق فينا اليوم وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال ياتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح فى الماء قيل بما ذاك يارسول الله قال بما يري من المنكر لايستطيع تغييره وذكر الامام أحمد من حديث جرير ان النبي صلى الله عليه وسلم قال مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر ممن يعمله فلم يغيروه الا عمهم الله بعقاب وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق اقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار فيقولون اي فلان ماشأنك ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه وذكر الامام أحمد عن مالك بن دينار قال كان حبر من أحبار بني اسرائيل يغشي منزله الرجال والنساء فيعظهم ويذكرهم بايام الله فرأى بعض بنيه يوماً يغمز النساء فقال مهلا يابني مهلا يابني فسقط من سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقتل بنوه فاوحي الله الى نبيهم أن أخبر فلانا الحبر ان لاأخرج من صلبك صديقاً أبداً ما كان غضبك لى الا أن قلت مهلا يابني مهلا يابني وذكر الامام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثل كمثل القوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتي جمعوا سواداً وأججوا ناراً وانضجوا ماقذفوا فيها وفي صحيح البخاري عن

Marfat.com

عن أنس بن مالك قال إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر وإنا كنا نعدها على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عذبت إمرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار لاهي أطعمتها ولا سقتها ولا تركتها تأكل من خشاش الارض وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة انه قيل له في يوم واحد تركت بنوا إسرائيل دينهم قال لا ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه وإذا نهوا عن شيء فعلوه حتي انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه ومن ههنا قال بعض السلف المعاصي بريد الكفر كما ان القبلة بريد الجماع والغناء بريد الزنا والنظر بريد العشق والمرض بريد الموت وفي الحلية أيضاً عن ابن عباس أنه قال ياصاحب الذنب لاتأمن فتنة الذنب وسوء عاقبة الذنب ولما تتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته فله حبا بك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب وضحكك وأنت لم تدر ما الله صانع بك أعظم من الذنب وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب ويحك هل تدرى ما كان ذنب ايوب عليه السلام فابتلاه بالبلاء في جسده وذهاب ماله استغاث به مسكين على ظالم يدرءه عنه فلم يغثه ولم ينه الظالم عن ظلمه فابتلاه الله وقال الامام أحمد حدثنا الوليد قال سمعت الاوزاعي يقول سمعت هلال بن سعد يقول لاتنظر الى صغر الخطيئة ولكن أنظر إلى من عصيت وقال الفضيل بن عياض بقدر مايصغر الذنب عندك يعظم عند الله وبقدر مايعظم عندك يصغر عند الله وقيل أوحي الله تعالى الى موسي ياموسى إن أول من مات من خلقي إبليس وذلك لانه أول من عصاني وإنما أعد من عصاني من الاموات وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء فاذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال الترمذي هذا حديث صحيح وقال حذيفة إذا أذنب ذنباً العبد نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرمداء وقال الامام أحمد ثنا يعقوب ثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب حدثني عبد الله بن عبيد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما بعد يامعشر قريش فانكم أهل لهذا الامر مالم تعصوا الله فاذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحي هذا القضيب لقضيب في يده ثم لحى قضيبه فاذا هو أبيض يصلد وذكر الامام أحمد

Marfat.com

عن وهب قال أن الرب عز وجل قال في بعض مايقول لبني إسرائيل انى إذا أطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتى نهاية وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتى تبلغ السابع من الولد وذكر أيضاً عن وكيع ثنا زكريا عن عامر قال كتبت عائشة الى معاوية أما بعد فان العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً ذكر أبونعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال ليحذر إمرأ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لايشعر ثم قال أتدري مم هذا قلت لاقال إن العبد يخلو بمعاصي الله فيلقى الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لايشعر وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لابيه عن محمد بن سيرين انه لما ركبه الدين اغتم لذلك فقال إني لاأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة وهاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب وهي إنهم لايرون تأثيره في الحال وقد يتأخر تأثيره فينسي ويظن العبد إنه لايغير بعد ذلك وإن الامر كما قال القائل

إذا لم يغبر حائط في وقوعه * فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق وكم أزالت من نعمة وكم جلبت من نقمة وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلا عن الجهال ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السهم وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل وقد ذكر الامام أحمد عن أبي الدرداء أعبدوا الله كانكم ترونه وعدوا أنفسكم في الموتى واعلموا أن قليل يكفيكم خير من كثير يلهيكم واعلموا أن البر لايبلى وان الاثم لاينسى ونظر بعض العباد الى صبي فتأمل محاسنه فاتى في منامه وقيل له لتجدن غبها بعد أربعين سنة هذا مع أن للذنب نقداً معجل لايتأخر عنه قال سليمان التيمي أن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته وقال يحيي بن معاذ الرازي عجبت من ذي عقل يقول في دعائه اللهم لاتشمت بي الاعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له قيل وكيف ذلك قال يعصي الله فيشمت به في القيامة قال ذي النون من خان الله في السر هتك ستره في العلانية

فصل

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يعلمه الا الله فمنها حرمان العلم فان العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفئ ذلك النور ولما جلس الامام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه مارأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية وقال الشافعي

شكوت الى وكيع سوء حفظي * فارشدني الى ترك المعاصي
وقال اعلم بان العلم فضل * وفضل الله لايؤتاه عاصي

ومنها حرمان الرزق وفي المسند ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقد تقدم وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصي ومنها وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لايوازنها ولا يقارنها لذة اصلا ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لايحس به الا من في قلبه حياة وما لجرح بميت ايلام فلو لم ترك الذنوب الا حذراً من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حرياً بتركها وشكى رجل الى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه فقال له اذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب فالله المستعان ومنها الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم فانه يجد وحشة بينه وبينهم وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم بركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان بقدر مابعد من حزب الرحمن وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين إمرأته وولده وأقاربه وبينه وبين نفسه فتراه مستوحشاً من نفسه وقال بعض السلف إني لأعصي الله فارى ذلك في خلق دابتي وإمرأتي ومنها تعسير اموره عليه فلا يتوجه لامر الا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه وهذا كما إن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسراً ويالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لايعلم من أين أتى ومنها ظلمته يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره فان الطاعة نور والمعصية ظلمة وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والامور المهلكة وهو لايشعر كاعمى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً في الوجه حتى يراه كل أحد قال عبد الله بن عباس ان للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القبر والقلب ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق ومنها ان المعاصي توهن القلب والبدن أما وهنها للقلب فامر ظاهر بل لايزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية وأما وهنها للبدن فان المؤمن قوته من قلبه وكلما قوى قلبه قوى بدنه وأما الفاجر فانه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شئ عند الحاجة فتخونه قوته عند أحوج مايكون إلى نفسه فتأمل قوة

أبدان فارس والروم كيف خانتهم عند أحوج ما كانوا اليها وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم ومنها حرمان الطاعة فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا إنه يصد عن طاعة تكون بدله ويقطع طريق طاعة أخرى فينقطع عليه طريق ثالثة ثم رابعة وهلم جرا فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها والله المستعان ومنها أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولابد فان البر كما يزيد في العمر فالفجور ينقص وقد اختلف الناس في هذا الموضع فقالت طائفة نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه وهذا حق وهو بعض تأثير المعاصى وقالت طائفة بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيده وللبركة في العمر أسبابا تكثره وتزيده قالوا ولا تمنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب فالارزاق والاجال والسعادة والشقاوة والصحة والمرض والغني والفقر وإن كانت بقضاء الله عز وجل فهو يقضي مايشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها وقالت طائفة أخرى تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة وهي حياة القلب ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حي كما قال تعالى أموات غير أحياء فالحيوة في الحقيقة حيوة القلب وعمر الانسان مدة حياته فليس عمره الا أوقات حياته بالله فتلك ساعات عمره فالبر والتقوي والطاعة تزيد في هذه الاوقات التي هي حقيقة عمره ولا عمر له سواها وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غب إضاعتها يوم يقول ياليتني قدمت لحياتي فلا يخلوا إما أن يكون له مع ذلك تطلع الى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا فان لم يكن له تطلع الى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلا وإن كان له تطلع الى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها وذلك نقصان حقيقي من عمره وسر المسألة أن عمر الانسان مدة حياته ولا حيوة له إلا باقباله على ربه والتنعم بحبه وذكره وإيثار مرضاته

فصل

ومنها أن المعاصى تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف أن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها أعملني أيضاً فاذا عملها قالت الثانية كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح وتزايدت الحسنات وكذلك كانت السيئات أيضاً حتي تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة فلو عطل المحسن الطاعة

Marfat.com

لضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الارض بمارحبت وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتي يعاودها فتسكن نفسه وتقرعينه ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاق صدره وأعيت عليــه مذاهبه حتي يعاودها حتي أن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ولاداعية اليها إلا لمايجد من الالم بمفارقتها كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانيء حيث يقول

وكأس شربت على لذة * وأخرى تداويت منها بها

وقال الآخر

وكانت دوائي وهي دائي بعينه * كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولايزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تأزه اليها أزا وتحرضه عليها وتزعجه عن فراشه ومجلسه اليها ولايزال يألف المعاصى ويحبها ويؤثرها حتي يرسل الله اليه الشياطين فتأزه اليها أزاً فالاول قوي جند الطاعة بالمدد فكانوا أكثر من أعوانه وهذا قوي جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه

فصل

ومنها وهو من اخوفها على العبد أنها لضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً الى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لماتاب الى الله فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشيء كثير وقلبه معقود بالمعصية مصر عليها عازم على مواقعتها متي أمكنه وهذا من أعظم الامراض وأقربها الى الهلاك

فصل

ومنها أنه ينسلخ من القلب إستقباحها فتصير له عادة فلايستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة حتي يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها فيقول يافلان عملت كذا وكذا وهذا الضرب من الناس لايعافون وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل أمتي معافا إلا المجاهرين وإن من الاجهار أن يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول يافلان عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فتهتك نفسه وقد بات يستره ربه ومنها أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الامم التي أهلكها الله عز وجل فاللوطية ميراث عن قوم لوط وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب والعلو في الارض والفساد ميراث عن فرعون وقوم فرعون والتكبر والتجبر ميراث

Marfat.com

عن قوم هود فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الامم وهم أعـداء الله وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لابيه عن مالك بن دينار قال أوحي الله الى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك لاتدخلوا مداخل أعدائي ولاتلبسوا ملابس أعـدائي ولاتركبوا مراكب أعدائي ولاتطعموا مطاعم أعدائي فتكونوا أعدائي كماهم أعدائي وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتي يعبد الله وحده لاشريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم

فصل

ومنها أن المعصية سبب هوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصري هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى ومن يهن الله فماله من مكرم وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم اليهم أوخوفا من شرهم فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه ومنها أن العبد لايزال يرتكب الذنوب حتي يهون عليه ويصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك فان الذنب كلما صغر في عين العبـد عظم عند الله وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال إن المؤمن يري ذنوبه كانها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار

فصل

ومنها أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال أبوهريرة إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم وقال مجاهد إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا أشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن ادم وقال عكرمة دواب الارض وهوامها حتي الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بني آدم فلا يكفيه عقاب ذنبه حتي يبوء بلعنه من لاذنب له

فصل

ومنهـا ان المعصـية تورث الذل ولا بد فان العز كل العز في طاعة الله تعالى قال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً أي فليطلبها بطاعة الله فانه لايجدها الا في طاعته وكان من دعاء بعض السلف اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك قال الحسن البصري انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل المعصية لاتفارق قلوبهم أبى الله

Marfat.com

الا ان أيذل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك

رأيت الذنوب تميت القلو * ب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلو * ب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين الا الملو * ك وأحبار سوء ورهبانها

فصل

ومنها إن المعاصي تفسد العقل فان للعقل نوراً والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد واذا طفئ نوره ضعف ونقص وقال بعض السلف ماعصي الله أحد حتى يغيب عقله وهذا ظاهر فانه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى أو تحت قهره وهو مطلع عليه وفي داره على بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون اليه وواعظ القرآن ينهاه وواعظ الايمان ينهاه وواعظ الموت ينهاه وواعظ النار ينهاه والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف مايحصل له من السرور واللذة بها فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم

فصل

ومنها أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين كما قال بعض السلف في قوله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال هو الذنب بعد الذنب وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب وقال غيره لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم وأصل هذا أن القلب يصدي من المعصية فاذا زادت غلب الصدي حتى يصير رانا ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلا وختما فيصير القلب في غشاوة وغلاف فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد

فصل

ومنها أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لعن على معاصي والتي غيرها اكبر منها فهي اولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة والواشرة والمستوشرة ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده ولعن المحلل والمحلل له ولعن السارق ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة اليه ولعن من غير منار الارض

Marfat.com

وهي إعلامها وحددوها ولعن من لعن والديه ولعن من إتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بسهم ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ولعن من ذبح يغير الله ولعن من أحدث حدثاً أو آوي محدثاً ولعن المصورين ولعن من عمل عمل قوم لوط ولعن من سب أباه وأمه ولعن من كمه أعمى عن الطريق ولعن من أتى بهيمة ولعن من رسم دابة فى وجهها ولعن من ضار بمسلم أو مكر به ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده ولعن من أتى امرأة في دبرها واخبر ان من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ولعن من انتسب الى غير أبيه وأخبر ان من أشار الى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه ولعن من سب الصحابة وقد لعن الله من أفسد فى الارض وقطع رحمه وأذاه وأذى رسوله ولعن من كتم ماأنزل الله سبحانه من البينات والهدى ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة ولعن من جعل سبيل الكافر اهدي من سبيل المسلم ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل ولعن الراشي والمرتشي والرائش وهو الواسطة في الرشوة ولعن على أشياء أخر غير هذه فلو لم يكن فى فعل ذلك الا رضاء فاعله بان يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك مايدعو الى تركه

فصل

ومنها حرمان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوة الملائكة فان الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيآت فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لاسبيل لهم غيرهما فلا يطمع غير هؤلاء باجابة هذه الدعوة اذا لم يتصف بصفات المدعوله بها

فصل

ومن عقوبات المعاصي مارواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال كان النبي صلي الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لاصحابه هل رأي أحد منكم البارحة رؤيا فيقص عليه ماشاء الله أن يقص وأنه قال لنا ذات غداة أنه أتاني الليلة آتيان وأنهما أبعثا لى

Marfat.com

وأنهما قالا لى إنطلق وإنى إنطلقت معهما وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع اليه حتي يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل مافعل فى المرة الاولى قال قلت لهما سبحان الله ماهذان قالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتي أحد شقى وجهه فيشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه ثم يتحول الى الجانب الاخر فيفعل به مثل مافعل بالجانب الاول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل مافعل في المرة الاولى قال قلت سبحان الله ماهذان فقالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور وإذا فيه لغط وأصوات قال فاطلعنا فيه فاذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فاذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا فقال قلت من هؤلاء قال فقالا لي إنطلق إنطلق قال فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فاذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح مايسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق فيسبح ثم يرجع اليه كلما رجع إليه فيفغر له فاه فالقمه حجراً قال قلت لهما ماهذان قالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرأى كاكره ماأنت رائ رجلا مرأ وإذا هو عنده نار يحشها ويسعى حولها قال قلت لهما ماهذا قال قالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا على روضة مغيمة فيها من كل نور الربيع وإذا بين ظهراني الروضة رجل طويل لاأكاد أرى رأسه طولا في السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال قلت ماهذا وما هؤلاء قال قالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا الى دوحة عظيمة لم أرى دوحة قط أعظم منها ولا أحسن قال قالا لي أرق فيها فارتقينا فيها الى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة قال فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا رجال شطر من خلقهم كاحسن ماأنت رائ وشطر منهم كاقبح ماأنت رائ قال قالا لهم إذهبوا فقعوا في ذلك النهر قال وإذا نهر معترض يجري كان ماءه المحض في البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم قال قالا لي هذه جنة عدن وهذاك منزلك قال فسمي بصري صعدا فاذا قصر مثل الربابة البيضاء قال قالا لى هذاك منزلك قال قلت لهما بارك الله فيكما فذراني فأدخله قالا أما الآن فلا وأنت داخله قال قلت لهما فاني رأيت منذ الليلة عجباً فما هذا الذي رأيت قال قالا لي أما انا سنخبرك أما الرجل الاول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلوة المكتوبة وأما الرجل الذي

أتيت عليه يشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور فانهم الزناة والزواني وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الربا وأما الرجل الكريه المنظر الذي عند النار يحثها ويسعى حولها فانه مالك خازن جهنم وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فانه ابراهيم وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة وفي رواية البرقاني ولد على الفطرة فقال بعض المسلمين يارسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد المشركين وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم قوم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم

فصل

ومن آثار الذنوب والمعاصي إنها تحدث في الارض أنواعاً من الفساد في المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون قال مجاهد اذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد فيحبس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد ثم قرأ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ثم قال أما والله ماهو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر وقال عكرمة ظهر الفساد في البر والبحر أما إني لاأقول لكم بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء وقال قتادة أما البر فاهل العمود وأما البحر فاهل القرى والريف قلت وقد سمي الله تعالى الماء العذب بحراً فقال هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج وليس في العالم بحر حلو واقفاً وإنما هي الانهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فتسمى القرى التي على المياه الجارية باسم تلك المياه وقال ابن زيد ظهر الفساد في البر والبحر قال الذنوب قلت أراد أن الذنب سبب الفساد الذي ظهر وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله ليذيقهم بعض الذي عملوا لام العاقبة والتعليل وعلى الاول فالمراد بالفساد والنقص والشر والالآم التي يحدثها الله فى الارض بمعاصي العباد فكل ماأحدثوا ذنباً أحدث لهم عقوبة كما قال بعض السلف كل ماأحدثم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة والظاهر والله أعلم إن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا فهذا حالنا وإنما إذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا

Marfat.com

لما ترك على ظهرها من دابة ومن تأثير معاصي الله في الارض مايحل بهـا من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم الا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من أبيارهم حتى أمر أن لايعلف العجين الذي عجن بمياههم لتواضح الابل لتأثير شؤم المعصية في الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات وقد ذكر الامام أحمد فى مسنده فى ضمن حديث قال وجدت في خزائن بعض بني أمية حنطة الحبة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها كان هذا ينبت في زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء انهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق فقد روى الترمذي في جامعه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فاذا أراد الله أن يطهر الارض من الظلمة والخونة والفجرة ويخرج عباداً من عباده من أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فيملأ الارض قسطاً كما ملئت جوراً ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله وتخرج الارض بركاتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقدر بعير ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس وهذا لان الارض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر ولاريب ان العقوبات التي أنزلها الله في الارض بقية آثارها سارية في الارض تطلب مايشاء كلها من الذنوب التي هى آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الامم فهذه الآثار في الارض من آثار العقوبات كما ان هـذه المعاصي من آثار الجرائم فتناسبت كلمة الله وحكمة الكوني أولا وآخراً وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية والأخف الأخف وهذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ولما أثرت طاعته في الارض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة

فصل

ومن عقوباتها انها تطفي من القلب نار الغيرة التي هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية

Marfat.com

لحياة جميع البدن فان الغيرة حرارته وناره التي تخرج مافيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد وأشرف الناس وأعلاهم قدراً وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أغير الخلق على الامة والله سبحانه أشد غيرة منه كما ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني وفي الصحيح أيضاً عنه انه قال صلى الله عليه وسلم في خطبة الكسوف يا أمة محمد ما أحد أغير من الله ان يزني عبده أو تزني أمته وفي الصحيح أيضاً عنه انه قال لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان والله سبحانه مع شدة غيرته يحب إن يعتذر اليه عبده ويقبل عذر من اعتذر اليه وانه لايؤاخذ عبده بارتكاب مايغار من ارتكابه حتى يعذر اليهم ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذاراً وإنذاراً وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال فان كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير إعذار منه ومن غير قبول العذر ممن إعتذر اليه بل قد يكون له فى نفس الامر عذر ولا تدعه شدة الغيرة ان يقبل عذره وكثير ممن تقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير ويرى عذراً ماليس بعذر حتى يعذر كثير منهم بالعذر وكل منهما غير ممدوح على الاطلاق وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان من الغيرة مايحبها الله ومنها مايبغضها الله فالتي يبغضها الله الغيرة من غير ريبة وذكر الحديث وانما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فيغار في محل الغيرة ويعذر فى موضع العذر ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً ولما جمع سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد إن يمدحه كما ينبغي له بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه فالغيور قد وافق ربه سبحانه فى صفة من صفاته ومن وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة اليه بزمامه وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوباً له فانه سبحانه رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء عليم يحب العلماء قوى يحب المؤمن القوي وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف حتى يحب أهل الحياء جميل يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر ولو لم يكن فى الذنوب والمعاصي الا انها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفي بها عقوبة فان الخطرة تنقلب وسوسة

Marfat.com

والوسوسة تصير إرادة والارادة تقوي فتصير عزيمة ثم تصير فعلا ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة وحينئذ يتعذر الخروج منهما كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس وقد تضعف فى القلب جداً لايستقبح بعدذلك القبيح لامن نفسه ولامن غيره واذا وصل الى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك وكثير من هؤلاء لايقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه اليه ويحثه عليه ويسعي له فى تحصيله ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة عليه حرام وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه لغيره فانظر ماالذى حملت عليه قلة الغيرة وهذا يدلك على ان أصل الدين الغيرة ومن لاغيرة له لادين له فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح فتدفع السوء والفواحش وعدم الغيرة تميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عنـدها دفع البتة ومثل الغيرة فى القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلا ولم يجد دافعاً فتمكن فكان الهلاك ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وعن ولده فاذا تكسرت طمع فيها عدوه

فصل

ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال الحياء خير كله وقال ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت وفيه تفسيران أحدهما انه على التهديد والوعيد والمعني من لم يستح فانه يصنع ماشاء من القبائح اذ الحامل على تركها الحياء فاذا لم يكن هناك حياء نزعه عن القبائح فانه يواقعها وهذا تفسير أبي عبيدة والثاني ان الفعل اذا لم تستح فيه من الله فافعله وانما الذى ينبغي تركه مايستحيي فيه من الله وهذا تفسير الامام أحمد في رواية ابن هاني فعلى الاول يكون تهديداً كقوله إعملوا ماشئتم وعلى الثاني يكون إذنا وإباحة فان قيل فهل من سبيل الى حمله على المعنيين قلت لاولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه لما بين الاباحة والتهديد من المنافات ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب إعتبار الآخر والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية حتى ربما انه لايتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح مايفعله والحامل على ذلك انسلاخه من الحياء واذا وصل العبد الى هذه الحالة لم يبق فى صلاحه مطمع واذا رأى ابليس طلعة وجهه

Marfat.com

حياء وقال فديت من لايفلح والحياء مشتق من الحياة والغيث يسمى حيا بالقصر لان به حياة الارض والنبات والدواب وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة فمن لاحياء فيه ميت في الدنيا شقى في الآخرة وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثاومن استحيي من الله عند معصيته استحى الله من عقوبته يوم يلقاه ومن لم يستح من الله تعالى من معصيته لم يستح الله من عقوبته

فصل

ومن عقوباتها أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله وتضعف وقاره فى قلب العبد ولابد شاء أم أبي ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرء على معاصيه وربما اغتر المغتر وقال إنما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء وطمعي فى عفوه لاضعف عظمته في قلبي وهذا من مغالطة النفس فان عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب والمتجرؤن على معاصيه ماقدروه حق قدره وكيف يقدره حق قدره أويعظمه أويكبره أويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل وكفى بالعاصى عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه ومن بعض عقوبة هذا أن يرفع الله عزوجل مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخف به فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته يعظم الناس حرماته وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أن لاينتهك الناس حرماته أم كيف يهون عليه حق الله ولايهونه الله على الناس أم كيف يستخف بمعاصى الله ولايستخف به الخلق وقد أشار سبحانه إلى هذا فى كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وأنه أركس أربابها بما كسبوا وغطي على قلوبهم وطبع عليها بذنوبهم وأنه نسيهم كما نسوه وأهانهم كما أهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا أمره ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له ومن يهن الله فماله من مكرم فانهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد إن أهانهم ومن ذا يكرم من أهانه الله أويهن من أكرم

فصل

ومن عقوباتها أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذي لايرجي معه نجاة قال الله ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس

Marfat.com

ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولاتكونوا كالذين نسوا الله فانساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون فامر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه واخبر أنه عاقب من ترك التقوي بان أنساه نفسه أي أنساه مصالحها ومايجيها من عذابه ومايوجب له الحياة الابدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها فانساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره فترى العاصى مهملا لمصالح نفسه مضيعاً لها قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته وقد فرط في سعادته الابدية واستبدل بها أدني مايكون من لذة إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف

أحلام نوم أو كظل زائل * إن اللبيب بمثلها لايخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن فضيع من لاغني له عنه ولاعوض له منه واستبدل به من عنه كل الغني أو منه كل العوض

من كل شئ إذا ضيعته عوض * وليس في الله أن ضيعت من عوض

فالله سبحانه يعوض عن كل شئ ماسواه ولايعوض منه شئ ويغني عن كل شئ ولايغني عنه شئ ويمنع من كل شئ ولايمنع منه شئ ويجير من كل شئ ولايجير منه شئ كيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتي ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه وماظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه

فصل

ومن عقوباتها أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين فان الاحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي فان من عبد الله كانه يراه لم يكن كذلك الالاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه بحيث يصير كانه يشاهده وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعاصى فضلا عن مواقعتها فاذا خرج من دائرة الاحسان فاته صحبة رفقته الخاصة وعيشهم الهني ونعيمهم التام فان أراد الله به خيراً أقره فى دائرة عموم المؤمنين فان عصاه بالمعاصى التى تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولايشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولاينتهب نهبة ذات شرف يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن فاياكم إياكم والتوبة معروضة بعد

Marfat.com

فصل

ومن فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الايمان فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فان الله يدافع عن الذين آمنوا وفاته كل خير رتبه الله في كتابه على الايمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها فمنها الاجر العظيم وسوف يؤتي اللهالمؤمنين أجراً عظيما ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة إنالله يدافع عن الذين آمنوا ومنها استغفار حملة العرش لهمالذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين امنوا ومنها موالات الله لهم ولا يذل من والاه الله قال الله تعالى الله ولى الذين آمنوا ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم إذ يوحي ربك الى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ومنها إن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم ومنها العزة ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ومنها معية الله لأهل الايمان وإن الله لمع المؤمنين ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ومنها أعطاهم كفلين من رحمته وأعطاهم نوراً يمشون بهومغفرة ذنوبهم ومنها الود الذي يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم ويحببهم الى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين ومنها أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف فمن آمن وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ومنها انهم المنعم عليهم الذين أمرنا ان نسأله ان يهدينا الى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة ومنها ان القرآن انما هو هدى لهم وشفاء قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد والمقصود ان الايمان سبب جالب لكل خير وكل خير فى الدنيا والآخرة فسببه الايمان فكيف يهون على العبد ان يرتكب شيئاً يخرجه من دائرة الايمان ويحول بينه وبينه ولكن لايخرج من دائرة عموم المسلمين فان استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه ان يرين على قلبه فيخرجه عن الاسلام بالكلية ومن هنا أشتد خوف السلف كما قال بعضهم أنتم تخافون الذنوب وأنا أخاف الكفر

فصل

ومن عقوبتها انها تضعف سير القلب الى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطوا الى الله خطوة هذا إن لم ترده عن وجهته الى ورائه فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره فان زالت بالكلية إنقطع عن الله إنقطاعاً يبعد تداركه

والله المستعان فالذنب أما يميت القلب أو يمرضه مرضاً مخوفاً أو يضعف قوته ولا بد حتى ينتهي ضعفه الى الاشياء الثمانية التي إستعاذ منها النبي صلى الله عليه وسلم وهي الهم والحزن والكسل والعجز والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال وكل اثنين منها قرينان فالهم والحزن قرينان فان المكروه والوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه احدث الهم وإن كان من أمر ماض قد وقع احدث الحزن والعجز والكسل قرينان فان تخلف العبد عن اسباب الخير والفلاح ان كان لعدم قدرته فهو العجز وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل والجبن والبخل قرينان فان عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن وإن كان بماله فهو البخل وضلع الدين وقهر الرجال قرينان فان إستيلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال والمقصود إن الذنوب من أقوى الاسباب الجالبة لهذه الثمانية كما إنها من أقوى الاسباب الجالبة لجهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الاعداء ومن أقوى الاسباب الجالبة لزوال نعم الله تعالى وتقدس وتحول عافيته وفجاءة نقمته وجميع سخطه

فصل

ومن عقوبات الذنوب إنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة وقد قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير وقال تعالى ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فأخبر الله تعالى إنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره وأسباب رضاه بأسباب سخطه فاذا غير غير عليه جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد فأن غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ومالهم من دونه من وال وفي بعض الآثار الألهية عن الرب تبارك وتعالى إنه قال وعزتي وجلالي لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب ثم ينتقل عنه إلى ما أكره إلا إنتقلت له مما يحب عبيدي الى ما يكره ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره فينتقل عنه الى ما أحب الا إنتقلت له مما يكره الى ما يحب وقد أحسن القائل

إذا كنت في نعمة فارعها * فان الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد * فرب العباد سريع النقم

وإياك والظلم مهما إستطعت * فظلم العباد شديد الوحم
وسافر بقلبك بين الورى * لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعـــدهم * شهود عليهـم ولا تتهـم
وما كان شئ عليهم اضر * من الظلم وهو الذي قد تصم
فكم تركوا من جنان ومن * قصور وأخرى عليهم اطم
صلوا بالجحيم وفات النعم * وكان الذي نالهم كالحلم

فصل

ومن عقوباتها مايلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف فى قلب العاصي فلا تراه الا خائفاً مرعوباً فان الطاعة حصن الله الاعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب فمن أطاع الله إنقلبت المخاوف في حقه أمانا ومن عصاه إنقلبت مأمنه مخاوف فلا تجد العاصي إلا وقلبه كانه بين جناحي طائر ان حركت الريح الباب قال جاء الطلب وان سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب يحسب كل صيحة عليه وكل مكروه قاصد اليه فمن خاف الله آمنه من كل شئ ومن لم يخف الله أخافه من كل شئ

بدا قضاء الله بين الخلق مذ خلقوا * إن المخاوف والاجرام في قرن

ومن عقوباتها انها توقع الوحشة العظيمة في القلب فيجد المذنب نفسه مستوحشا قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه وبينه وبين الخلق وبينه وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين وأطيب العيش عيش المستأنسين فلو نظر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما تولد فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه اذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف

اذا كنت قد أوحشتك الذنوب * فدعها اذا شئت واستأنس

وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه وكلما اشتد القرب قوى الانس والمعصية توجب البعد من الرب وكلما زاد البعد قويت الوحشة ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما وإن كان ملابساً له قريبا منه ويجد أنساً قوياً بينه وبين من يحب وإن كان بعيداً عنه والوحشة سببها الحجاب وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة فالغفلة توجب الوحشة واشد منها وحشة المعصية واشد منها وحشة الشرك الكفر ولا تجد أحداً يلابس شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه فتعلو الوحشة وجهه وقلبه فيستوحش ويستوحش منه

Marfat.com

فصل

ومن عقوباتها انها تصرف القلب عن صحته واستقامته الى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضاً معلولا لاينتفع بالاغذية التي بها حياته وصلاحه فان تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الامراض في الابدان بل الذنوب أمراض القلوب ودائها ولادواءلها الا تركها وقد أجمع السائرون الى الله أن القلوب لاتعطى مناها حتى تصل الى مولاها ولاتصل الى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فتصير نفس دوائها ولا يصح لها ذلك الا بمخالفة هواها وهواها مرضها وشفاؤها مخالفته فان استحكم المرض قتل أو كاد وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لايشبه نعيم أهلها نعيم البتة بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة وهذا أمر لايصدق به الا من باشر قلبه هذا وهذا ولا تحسب ان قوله تعالى إن الابرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط بل في دورهم الثلاثة كذلك أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار فهؤلاء في نعيم وهؤلاء في جحيم وهل النعيم إلا نعيم القلب وهل العذاب إلا عذاب القلب وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله بكل واد منه شعبة وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فانه يسومه سوء العذاب فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار فهو يعذب بدنبل حصوله حتى يحصل فاذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات فاذا سلبه اشتد عذابه عليه فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لايرجى عوده وألم فوات ماقاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده وألم الحجاب عن الله وألم الحسرة التي تقطع الاكباد فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ماتعمل الهوام والديدان في أبدانهم بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله الى أجسادها فحينئذ ينتقل العذاب الى نوع هو أدهى وأمر فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه واشتياقا اليه وارتياحاً بحبه وطمأنينة بذكره حتى يقول بعضهم في حال نزعه واطرباه ويقول الآخر ان كان أهل الجنة في مثل هذا الحال انهم لفي عيش طيب ويقول الآخر مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها وما ذاقوا أطيب مافيها ويقول الآخر لو علم الملوك أبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا

Marfat.com

عليه بالسيوف ويقول الآخر ان في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة فيامن باع حظه الغالي بأبخس الثمن وغبن كل الغبن في هذا العقد وهو يرى انه قدغبن اذالم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسئل المقومين فياعجبا من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوي والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشترى هو الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بعتها بغاية الهوان

اذا كان هذا فعل عبد بنفسه * فمن ذاله من بعد ذلك يكرم

ومن يهن الله فاله من مكرم إن الله يفعل مايشاء

فصل

ومن عقوباتها انها تعمي بصر القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى لما اجتمع به ورأى تلك المخايل إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً فلاتطفئه بظلمة المعصية ولايزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم فكم من مهلك يسقط فيه وهو لايبصر كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب فياعزة السلامة وياسرة العطب ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب الى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها فاذا كانت عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلأ القبر ظلمة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة وإن الله ينورها بصلاتي عليهم فاذا كان يوم المعاد وحشر العباد وعلت الظلمة الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة فيالها من عقوبة لاتوازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها الى آخرها فكيف يقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن انما هو ساعة من حلم والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها انها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره كما ان الطاعة تنمها وتزكيها وتكبرها قال تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء ومنه قوله تعالى يدسه في التراب فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء مايأتي به قدانقمع عند نفسه وانقمع عند الله وانقمع عند الخلق فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى

Marfat.com

وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو فاصغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله

فصل

ومن عقوباتها أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ولا أسير أسوء حال من أسير أسره أعدى عدوله ولا سجن أضيق من سجن الهوى ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قلب ماسور مسجون مقيد وكيف يخطو خطوة واحدة وإذا تقيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل استوحشه الآفات وفي الحديث الشيطان ذئب الانسان وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه كما هي وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب الى الهلاك فاحمي ماتكون الشاة إذا قربت من الراعى وإنما يأخذ الذئب القاصي من الغنم وهي أبعدهن من الراعي وأصل هذا كله إن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات اليه أسرع وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض فالغفلة تبعد العبد عن الله وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله

فصل

ومن عقوباتها سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه فان أكرم الخلق عند الله أتقاهم وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده فاذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه فاسقطه من قلوب عباده وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك فعاش بينهم أسوء عيش خامل الذكر ساقط القدر زري الحال لا حرمة له فلا فرح له ولا سرور فان خمول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل غم وهم وحزن ولا سرور معه ولا فرح وأين هذا الالم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة ومن أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلى قدره ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى وأذكر عبادنا ابراهيم وأسحاق ويعقوب أولى الايدي والابصار أنا أخلصناهم بخالصة ذكر الدار أني خصصناهم

Marfat.com

بخصيصة وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار وهو لسان الصدق الذي سأله ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال واجعل لي لسان صدق في الآخرين وقال سبحانه وتعالى عنه وعن نبيه ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم وكل من خالفهم فانه من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم

فصل

ومن عقوباتها انها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمتقي والمطيع والمنيب والولى والورع والمصلح والعابد والخائف والاواب والطيب والرضى ونحوها وتكسوه اسم الفاجر والعاصي والمخالف والمسيء والمفسد والخبيث والمسخوط والزاني والسارق والقاتل والكاذب والخائن واللوطي والغادر وقاطع الرحم وأمثالها فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الايمان التي توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزى والهوان وتلك أسماء توجب رضاء الرحمان ودخول الجنان وتوجب شرف المسمي بها على سائر أنواع الانسان فلو لم يكن في عقوبة المعصية الا إستحقاق تلك الاسماء وموجباتها لكان في العقل ناه عنها ولو لم يكن في ثواب الطاعة الا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لكان في العقل أمر بها ولكن لامانع لما أعطي الله ولا معطي لما منع ولا مقرب لمن باعد ولا مبعد لمن قرب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل مايشاء

فصل

ومن عقوباتها إنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص الا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل وفكره أصح ورأيه أسد والصواب قرينه ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي الألباب والعقول كقوله فاتقون ياأولي الألباب وقوله فاتقوا الله ياأولى الألباب وقوله وما يذكر الا أولوا الالباب ونظائر ذلك كثيرة وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره وهو يعلم إنه يراه ويشاهده فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه ويستعين بنعمه على مساخطه ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له وإبعاده من قربه وطرده عن بابه وإعراضه عنه وخذلانه له والتخليه بينه وبين نفسه وعدوه وسقوطه من عينه وحرمانه وروح رضاه وحيه وقرة العين بقربه والفوز بجواره والنظر الى وجهه في زمرة أوليائه الى أضعاف أضعاف ذلك

Marfat.com

من كرامة أهل الطاعة وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية فاي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضي كانها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم بل هو سعادة الدنيا والآخرة ولولا العقل الذي تقوم عليه به الحجة لكان بمنزلة المجانين بل قد يكون المجانين أحسن حالا منه وأسلم عاقبة فهذا من هذا الوجه وأما تأثيرها في نقصان العقل العيشي فلولا الاشتراك في هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا ولكن الجائحة عامة والجنون فنون ويا عجبا لو صحت العقول لعلمت أن الطريق الذى يحصل به اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو في رضاء من النعم كله في رضاه والالم والعذاب كله في سخطه وغضبه ففى رضاه قرة العيون وسرور النفوس وحياة القلوب ولذة الارواح وطيب الحياة ولذة العيش وأطيب النعيم مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم تف به بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا ومافيها عوضاً منه ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير مايشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والاحزان والمعارضات بل قد حصل له على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما ومايحصل له فى خلال ذلك من الآلام فالامر كما قال سبحانه إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون فلا إله إلا الله ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر والمسك بالرجيع ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعداهم جهنم وساءت مصيرا

فصل

ومن أعظم عقوباتها أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر فاي فلاح وأي رجاء وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير وقطع مابينه وبين وليه ومولاه الذي لاغني له عنه طرفة عين ولابدل له منه ولاعوض له عنه واتصلت به أسباب الشر ووصل مابينه وبين أعداء عدوله فتولاه عدوه وتخلي عنه وليه فلا تعلم نفس مافى هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب قال بعض السلف رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان فان أعرض الله عنه تولاه الشيطان وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان وقد قال تعالى وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا يقول سبحانه لعباده أنا أكرمت آباكم ورفعت قدره وفضلته على غيره فامرت ملائكتى كلهم أن يسجدوا له تكريماً وتشريفاً

فاطاعوني وابي عدوي وعدوه فعصى أمري وخرج عن طاعتي فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذونه وذريته أولياء من دوني فتطيعونه في معصيتي وتوالونه في خلاف مرضاتي وهم أعدا عدولكم فواليتم عـدوي وقد أمرتكم بمعاداته ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء فان المحبة والطاعة لاتتم إلا بمعادات أعـداء المطاع وموالات أوليائه وأما ان توالى أعداء الملك ثم تدعي انك موالله فهذا محال هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التى بين الشاة وبين الذئب فكيف يليق بالعاقل أن يوالى عدوه وعـدو وليه ومولاه الذي لامولى له سواه ونبه سبحانه على قبح هـذه الموالات بقوله وهم لكم عدو وكما نبه على قبحها بقوله تعالى ففسق عن أمر ربه فبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو الى معاداته فما هذه الموالات وماهذا الاستبدال بئس للظالمين بدلا ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العقاب لطيفاً عجيباً وهو اني عاديت إبليس إذ لم يسجد لابيكم آدم مع ملائكتى فكانت معاداته لاجلكم ثم كان عاقبة هذه المعادات أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة

فصل

ومن عقوباتها أنها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصي الله وما محت البركة من الارض إلا بمعاصى الخلق قال الله تعالى ولو أن اهل القري آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال تعالى وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه وأن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وفي الحديث أن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملو في الطلب فانه لاينال ماعند الله الا بطاعته وإن الله جعل الروح والفرح في الرضاء واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط وقد تقدم الاثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد أنا الله إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ولا طول العمر بكثرة الشهور والاعوام ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره بل لحياة البهائم خير من حياته فان حياة الانسان بحياة قلبه وروحه ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده أو الانابة اليه والطمأنينة بذكره والانس بقربه ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنها بما تعوض به في الدنيا بل ليست

Marfat.com

الدنيا بأجمعها عوضا عن هذه الحياة فمن كل شيء يفوت العبد عوض وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات والعاجز بالذات عن القادر بالذات والميت عن الحي الذي لايموت والمخلوق عن الخالق ومن لاوجود له فلا شيء له من ذاته البتة عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته وكيف يعوض من لايملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والارض وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والاجل لان الشيطان موكل بها وبأصحابها فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة ولهذا شرع ذكر إسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع لما في مقارنة إسم الله من البركة وذكر إسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها وكل شيء لايكون لله فبركته منزوعة فان الرب هو الذي يبارك وحده والبركة كلها منه وكلما نسب اليه مبارك فكلامه مبارك ورسوله مبارك وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك وبيته الحرام مبارك وكنانته من أرضه وهي الشام أرض البركة وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه فلا مبارك الاهو وحده ولا مبارك الا مانسب اليه أعني إلى محبته وألوهيته ورضاه وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه وكلما باعده من نفسه من الاعيان والاقوال والاعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه وكلما كان منه قريباً من ذلك ففيه من البركة على قدر قربه منه وضد البركة اللعنة فأرض لعنها الله أو شخص لعنه الله أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة وكلما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه البتة وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه وإتصاله فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل فكل وقت عصيت الله فيه أو مال عصى الله به أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ليس له فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله الا ماأطاع الله به ولهذا من الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لايبلغ عشرين سنة أو نحوها كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لايبلغ ألف درهم أو نحوها وهكذا الجاه والعلم وفي الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله عزوجل وما والاه أو عالم أو متعلم وفي أثر آخر ملعونة ملعون مافيها الا ماكان لله هذا هو الذي فيه البركة خاصة والله المستعان

Marfat.com

فصل

ومن عقوباتها أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد ان كان مهيئاً لان يكون من العلية فان الله خلق خلقه قسمين علية وسفلة وجعل عليين مستقر العلية وأسفل سافلين مستقر السفلة وجعل أهل طاعته الاعليين في الدنيا والاخرة وأهل معصيته الاسفلين في الدنيا والآخرة كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه وأهل معصيته أهون خلقه عليه وجعل العزة لهؤلاء والذلة والصغار لهؤلاء كما في مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال جعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى وكلما عمل العبد معصية نزل الى أسفل درجة ولايزال في نزول حتي يكون من الاسفلين وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ولا يزال في ارتفاع حتي يكون من الاعليين وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم وهو أن العبد قد ينزل نزولا بعيداً أبعد مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والارض ولا يفيء بصعوده الف درجة بهذا النزول الواحد كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة ولا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب فأي صعود يوازن هذه النزلة والنزول أمر لازم للانسان ولكن من الناس من يكون نزوله الى غفلة فهذا متى استيقظ من غفلته عاد الى درجته أو الى أرفع منها بحسب يقظته ومنهم من يكون نزوله الى مباح لاينوى به الاستعانة على الطاعة فهذا اذا رجع الى الطاعة قد يعود الي درجته وقد لايصل اليها وقد يرتفع عنها فانه قد يعود أعلى همة مما كان وقد يكون أضعف همة وقد تعود همته كما كانت ومنهم من يكون نزوله الي معصية إما صغيرة أو كبيرة فهذا يحتاج فى عوده الي درجته الي توبة نصوح وانابة صادقة واختلف الناس هل يعود بعد التوبة الى درجته التي كان فيها بناء على ان التوبة تمحو أثر الذنب وتجعل وجوده كعدمه فكانه لم يكن أولا يعود بناء على أن التوبة تأثيرها فى إسقاط العقوبة وأما الدرجة التي فاتته فانه لايصل اليها قالوا وتقرير ذلك انه كان مستعدا باشتغاله بالطاعة في الزمن الذى عصى فيه اصعود آخر وارتفاعه بجملة أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذى يملكه وكلما تضاعف المال تضاعف الربح فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله فاذا استأنف العمل استأنف صعودا من نزول وكان قبل ذلك صاعدا من أسفل الى اعلى وبينهما بون عظيم قالوا ومثل ذلك

Marfat.com

رجلان مرتقيان في سلمين لانهاية لهما وهما سواء فنزل أحدهما الى أسفل ولو درجة واحدة ثم استأنف الصعود فان الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكماً مقبولا فقال التحقيق ان من التائبين من يعود الى أرفع من درجته ومنهم من يعود الى من مثل درجته ومنهم من لا يصل الى درجته ومنهم من يعود الى درجته قلت وهذا بحسب قدر التوبة وكمالها وما أحدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع والانابة والحذر والخوف من الله والبكاء من خشية الله وقد تقوى على هذه الامور حتى يعود التائب الى أرفع من درجته ويصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة فانها نفت عنه داء العجب وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله ووضعت خد ضراعته وذله وإنكساره على عتبة باب سيده ومولاه وعرفته قدره واشهدته فقره وضرورته الى حفظ سيده له ومولاه والى عفوه عنه ومغفرته له وأخرجت من قلبه صولة الطاعة وكسرت أنفه من أن يشمخ بها أو يتكبر بها أو يري نفسه بها خيراً من غيره وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدي ربه مستحياً خائفاً منه وجلا محتقرا لطاعته مستعظما لمعصيته عرف نفسه بالنقص والذم وربه متفرد بالكمال والحمد والوفي كما قيل

استأثر الله بالوفى وبالحمـ * ـد وولى الملامة الرجلا

فصل

في نعمة وصلت من الله اليه استكثرها على نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلا لها وأي نقمة أو بلية وصلت اليه رأي نفسه أهلا لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن اليه إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ولا أدني جزء منه فان مايستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات فضلا عن هذا العبد الضعيف العاجز فان الذنب وان صغر فان مقابله العظيم الذى لاشئ أعظم منه الكبير الذي لاشئ أكبر منه الجليل الذى لاأجل منه ولا أجمل المنعم بجميع أنواع النعم دقيقها وجليلها من أقبح الامور وافظعها واشنعها فان مقابلة العظماء والاجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر وأرذل الناس واسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل فكيف بعظيم السموات والارض وملك السموات والارض وإله أهل السموات والارض ولولا أن رحمته سبقت غضبه ومغفرته سبقت عقوبته والا لتزلزلت الارض بمن قابله بمالا تليق مقابلته به ولولا حلمه ومغفرته لزالت السموات والارض من معاصي العباد قال تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً فتأمل ختم هذه الآية

بأسمين من أسمائه وهما الحليم والغفور كيف تجد تحت ذلك انه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والارض وقد أخبر سبحانه عن كفر بعض عباده أنه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا وقدأخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره ونحن معاشر الحمقاء كما قيل

نصل الذنوب الى الذنوب ونرتجى * درج الجنان لذي النعيم الخالد

ولقد علمنا أخرج الابوين من * ملكوتها الأعلى بذنب واحد

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه وتمرض قلبه فلا يقوى ذو التوبة على إعادته الى الصحة الاولى فلا يعود الى درجته وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود الى مثل عمله فيعود الى درجته هذا كله إذا كان نزوله الى معصيته فان كان نزوله الى أمر يقدح فى أصل إيمانه مثل الشكوك والريب والنفاق فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود الا بتجديد إسلامه من رأسه

فصل

ومن عقوباتها أنها تجترئ على العبد مالم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات فتجترئ عليه الشياطين بالاذى والاغواء والوسوسة والتخويف والتغرير وإنسائه مامصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزه الى معصية الله أزاً وتجترئ عليه شياطين الانس بما تقدر عليه من الاذى في غيبته وحضوره وتجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم قال بعض السلف اني لاعصي الله فاعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي وكذلك تجترئ عليه أولياء الامر بالعقوبة التى ان عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود وتجترئ عليه نفسه فتتأسد عليه وتصعب عليه فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له وتسوقه الى مافيه هلاكه شاء أم أبى وذلك لان الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذى من دخله كان من الآمنين فاذا فارق الحصن اجترئ عليه قطاع الطريق وغيرهم وعلى حسب اجترائه على معاصى الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه وليس شيء يرد عنه فان ذكر الله وطاعته والصدقة وإرشاد الجاهل والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه فاذا سقطت القوة غلب وارد المرض وكان الهلاك ولا بد للعبد من شيء يرد عنه فان موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للغالب كما تقدم وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوي كما تقدم

فان الله يدافع عن الذين آمنوا والايمان قول وعمل فبحسب قوة الايمان تكون قوة الدفع والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تخون العبد أحوج مايكون الى نفسه فأن كل أحد محتاج الى معرفة ماينفعه وما يضره في معاشه ومعاده وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل وأقواهم وأكيسهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم فاعرفهم من كان عارفا باسباب السعادة والشقاوة وأرشدهم من آثر هذه على هذه كما ان أسفههم من عكس الامر والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان الى نفسه في تحصيل هذا العلم وإيثار الحظ الاشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الادني المنقطع فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين فاذا وقع في مكروه واحتاج الى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لايجذب مع صاحبه اذا جذبه فعرض له عدو يريد قتله فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه فدهمه العدو وظفر به كذلك القلب يصدئ بالذنوب ويصير مثخناً بالمرض فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئاً والعبد انما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه والجوارح تبع للقلب فاذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع به فما الظن بها عند عدم تلكها وكذلك النفس فانها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف أعني النفس المطمئنة وإن كانت الامارة تقوى وتتأسد وكلما قويت هذه ضعفت هذه فبقي الحكم والتصرف للامارة وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لايرجى معه حياة فهذا ميت في الدنيا ميت في البرزخ غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها بل حياته حياة يدرك بها الالم فقط والمقصود أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والانابة اليه والجمعية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكره وان ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فلا يحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر ولا يحبس اللسان والقلب على المذكور بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب غافل لاه ساه ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي كمن له جند يدفع عنه الاعداء فاهمل جنده وضيعهم وأضعفهم وقطع أخبارهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة هذا وثم أمر أخوف من

ذلك وأدهي وأمر وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال الى الله تعالى فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل لا إله إلا الله فقال آه آه لاأستطيع أن أقولها وقيل لآخر قل لاإله إلا الله فقال شاه رخ غلبك ثم قضى وقيل لآخر قل لاإله إلا الله فقال

يارب قائلة يوما وقد تعبت * أين الطريق الى حمام منجاب

ثم قضى وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يهذي بالغناء ويقول تاتا ننتتا فقال وما ينفعني ماتقول ولم أدع معصية الا ركبتها ثم قضى ولم يقلها وقيل لآخر ذلك فقال وما يغني عني وما أعلم اني صليت لله تعالى صلاة ثم قضى ولم يقلها وقيل لآخر ذلك فقال هو كافر بما تقول وقضي وقيل لآخر ذلك فقال كلما أردت أن أقولها فلساني يمسك عنها وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فليس لله فليس حتي قضي وأخبرني بعض التجار عن قرابة له انه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله وهو يقول هذه القطعة رخيصة هذا مشتري جيد هذه كذا حتى قضي وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا والذي يخفي عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصى وقد اغفل قلبه عن ذكر الله تعالى وعطل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته فكيف الظن به عندسقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع مايقدر عليه لينال منه فرضته فان ذلك آخر العمل فاقوي ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة فمن ترى يسلم على ذلك فهناك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا فبعيد من قلب بعيد من الله تعالى غافل عنه متعبد لهواه مصير لشهواته ولسانه يابس من ذكره وجوارحه معطلة من طاعته مشتغلة بمعصية الله أن يوفق لحسن الخاتمة ولقدقطع خوف الخاتمة ظهور المتقين وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالايمان أم لكم أيمان علينا بالغة الي يوم القيامة ان لكم لما تحكمون سلهم أيهم بذلك زعيم

ياآمنا من قبيح الفعل يصنعه * هل أتاك تواقيع أم أنت تملكه
جمعت شيئين أمناً واتباع هوى * هذا وإحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد * ساروا وذلك درب لست تسلكه

Marfat.com

فرطت في الزرع وقت البذر من سفه * فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شئ منك زهدك في * دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفيه اذاً بالله أنت أم الـــــمغبون في البيع غبنا سوف تدركه

فصل

ومن عقوباتها أنها تعمي القلب فان لم تعمه أضعفت بصيرته ولابد وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولابد فاذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته فان كمال الانسان مداره في أصلين معرفة الحق من الباطل وإيثاره عليه وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة الا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين وهما اللذان أثني الله بهما سبحانه على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام في قوله تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار فالأيدي القوة في تنفيذ الحق والأبصار البصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى القسم الثاني عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذي للعيون وحمي الأرواح وسقم القلوب يضيقون الديار ويغلون الأسعار ولا يستفاد من صحبتهم الا العار والشنار القسم الثالث من له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة اليه وهذا حال المؤمن الضعيف والمؤمن القوي خير واحب الى الله منه القسم الرابع من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن من أولياء الشيطان بل يحسب كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة يحسب الورم شحماً والدواء النافع سماً وليس في هؤلاء من يصلح للامامة في الدين ولا هو موضعاً لها سوي القسم الأول قال الله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون فاخبر سبحانه ان بالصبر واليقين نالوا الامامة في الدين وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعي الخاسرين والرائحين على ان من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتي يوصى بعضهم بعضاً ويرشده اليه ويحثه عليه فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين فمعلوم ان المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه بل قد تتوارد على القلب حتي ينعكس

Marfat.com

إدراكه كما ينعكس سيره فيدرك الباطل حقاً والحق باطلا والمعروف منكراً والمنكر معروفا فينتكس في سيره ويرجع عن سفره الى الله والدار الآخرة الى سفره الى مستقر النفوس المبطلة التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها وغفلت عن الله وآياته وتركت الاستعداد للقائه ولو لم يكن في عقوبة الذنوب الا هذه وحدها لكانت كافية داعية الى تركها والبعد منها والله المستعان وهذا كما ان الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله وتقويه وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيتملئ نورا فاذا دني الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الاسد حتى ان صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض ماشأنه فيقال أصابه أذي وبه نظرة من الانس

فيانظرة من قلب حر منور * يكادها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوي هذا القلب وتلب مظلم أرجاؤه مختلفة أهواؤه قد اتخذه الشيطان وطنه وأعده مسكنه اذا تصبح بطلعته حياه وقال فديت من لايفلح في دُنياه ولا في اخراه

اناقرينك في الدنياوفي الحشر بعدها * فانت قرين لى بكل مكان

فان كنت في دار الشقاء فانني * وأنت جميعا في شقا وهوان

قال الله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون فاخبر سبحانه ان من عشي عن ذكره وهو كتابه الذي أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وبارك فيه فاعرض عنه وعمى عنه وغشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه قيض الله له شيطانا عقوبة له في إعراضه عن كتابه فهو قرينه الذي لايفارقه لافي الاقامة ولا في المسير ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما * بأسحم داجٍ عوض لايتفرق

ثم أخبر سبحانه ان الشيطان ليصد قرينه وليه عن سبيله الموصل اليه والى جنته ويحسب هذا الضال المضل المصدود أنه على طريق هدي حتي اذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين كنت لى في الدنيا أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني وصددتنى عن الحق واغويتني حتى هلكت وبئس القرين أنت لى اليوم ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبة حصل بالتأسي نوع تخفيف وتسلية أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين في العذاب وأن

القرين لايجد راحة ولاأدنى فرح بعذاب قرينه معه وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء فى أخيها صخر

ولولا كثرة الباكين حولى * على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخي ولكن * أعزي النفس عنه بالتأسي
الا يا صخر لاأنساك حتى * أفارق عيشتي وورود رمسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون

فصل

ومن عقوباتها إنها مدد من الانسان يمد به عدوه عليه وجيش يقويه به على حربه وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الانسان بعدو لايفارقه طرفة عين صاحبه ينام ولاينام عنه ويغفل ولا يغفل عنه يراه هو وقبيله من حيث لايراه يبذل جهده في معاداته بكل حال ولا يدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله اليه الا أوصله ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الأنس وغيرهم من شياطين الجن وقد نصب له الحبائل وبغي له الغوائل ومد حوله الاشراك ونصب له الفخاخ والشباك وقال لاعوانه دونكم عدوكم وعدو أبيكم لايفوتكم ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة وقد علمتم إن ما جرى علي وعليكم من الخزي واللعن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية اذ قد فاتنا شركة صالحيهم في الجنة ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلطوا عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقون بها وأمد عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم به وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالاضافة الى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وأخبر ان ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه وهي التوراة والانجيل والقرآن ثم أخبر انه لا أوفى بعهده منه سبحانه ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر الى المشتري من هو والى الثمن المبذول في هذه السلعة والى من جرى على يديه هذا العقد فاي فوز أعظم من هذا واي تجارة أربح منه ثم أكد سبحانه معهم هذا الامر بقوله ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات

تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات اليه إلا لان الجهاد أحب شيء اليه وأهله أرفع الخلق عنده درجات وأقربهم اليه وسيلة فعقد سبحانه لواء هذا الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذي محل معرفته ومحبته وعبوديته والاخلاص له والتوكل عليه والانابة اليه فولاه أمر هذا الحرب وأيده بجند من الملائكة لايفارقونه له معقبات من بين يده ومن خلفه يحفظونه من أمر الله يعقب بعضهم بعضاً كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه ويعدونه بكرامة الله ويبشرونه ويقولون إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه فارسل إليه رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل اليه كتابه فازداد قوة إلى قوته ومددا الى مدده وعدة الى عدته وأمده مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له وبالايمان مثبتاً له ومؤيداً وناصراً وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الامر حتى كأنه يعاين ماوعد الله تعالى أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه فالعقل يدبر أمر جيشه والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائمة بها والايمان يثبته ويقويه ويصبره واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة ثم مد سبحانه القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة فجعل العين طليعة والاذن صاحب خبرة واللسان ترجمانه واليدين والرجلين أعوانه وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له ويسئلون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه وقال هؤلاء حزب الله وحزب الله هم المفلحون وهؤلاء جنده وإن جندنا لهم الغالبون وعلم عباده كيفية هذا الحرب والجهاد فجمعها لهم في أربع كلمات فقال ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ولايتم أمر هذا الجهاد الابهذه الامور الاربعة فلا يتم الصبر الابمصابرة العدو وهو مقاومته ومنازلته فاذا صابر عدوه احتاج الى أمر آخر وهي المرابطة وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو ولزوم ثغر العين والاذن واللسان والبطن واليد والرجل فهذه الثغور يدخل منه العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ماقدر عليه فالمرابطة لزوم هذه الثغور ولايخلى مكانها فيصادف العدو والثغر خالياً فيدخل منها فهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق بعد النبيين والمرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم وقد خلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو فكان ماكان وإجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة الابالتقوى ولاتقوم التقوى الا على ساق الصبر

Marfat.com

فانظر الآن فيك الى التقاء الجيشين واصطدام العسكرين وكيف تداله مرة ويدال عليك أخري أقبل ملك بكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب في حصنه جالساً على كرسي مملكته أمره نافذ في أعوانه وجنده قد حصنوا به يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته فلم يمكنهم الهجوم عليه الا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة فقيل له هي النفس فقال لاعوانه أدخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها وماهو محبوبها فعدوها به ومنوها اياه وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها فاذا اطمأنت اليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ثم جروها بها اليكم فاذا خامرة على القلب وصارة معكم عليه ملكتم ثغر العين والاذن واللسان والفم واليد والرجل فرابطوا على هذا الثغور كل المرابطة فمتي دخلتم منها الى القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح مثخن بالجراحات ولا تخلوا هذه الثغور ولا تمكنوا سرية تدخل منها الى القلب فتخرجكم منها وان غلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها حتي لا تصل الى القلب فان وصلت اليه وصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئاً فاذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره إعتباراً بل أجعلوا نظره تفرحاً واستحساناً وتلهيا فان استرق نظرة عبرة فافسدوه عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة فانه أقرب اليه وأعلق بنفسه وأخف عليه ودونكم ثغر العين فان منه تنالون بغيتكم فاني ماأفسدت بني آدم بشيء مثل النظر فاني أبذر به في القلب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الامنية ثم لاأزال أعده وامنيه حتى أقوى عزيمته وأقوده بزمام الشهوة إلى انخلاع من العصمة فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم وهونوا عليه أمره وقولوا له مقدار نظرة تدعوك الى تسبيح الخالق والرازق البديع والتأمل والتجمل صفة وحسن هذه الصورة التي إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه وماخلق الله لك العينين سدي وماخلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر وإن ظفر تم به قليل العلم فاسد العقل فقولوا له هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومجلي من مجاليه فادعوه الى القول بالاتحاد فان لم يقبل فالقول بالحلول العام والخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك فانه يصير به من إخوان النصارى فمروه حينئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد في الدنيا واصطادوا عليه الجهال فهذا من أقرب خلفائي وأكبر جندي بل أنا من جنده وأعوانه

فصل

ثم أمنعوا ثغر الاذن أن يدخل عليه مايفسد عليكم الأمر فاجتهدوا أن لاتدخلو منه الا الباطل فانه خفيف على النفس تستحليه وتستمليحه وتخيروا له أعذب الالفاظ

Marfat.com

وأسحرها للالباب أمزجوه بما تهوي النفس مزجاً وألقوا الكلمة فان رأيتم منه إصغاء اليها فزيدوه باخواتها فكلما صادفتم منه استحسان شيء فاهجموا له بذكره وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو كلام النصحاء فان غلبتم على ذلك ودخل شيء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به إما بادخال ضده عليه وإما بتهويل ذلك وتعظيمه وإن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها اليه وهو حمل ثقيل عليها لاتستقل به ونحو ذلك وإما بارخاصه على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس وأعز عليهم وأغرب عندهم وزبونه أكثر وأما الحق فهو مهجور والقائل به معرض نفسه للعدوان ولاينبغي والربح بين الناس أولى بالايثار ونحو ذلك فيدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه ويخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر الى إخوانهم من شياطين الانس كيف يخرجون الامر بالمعروف والنهى عن المنكر في قالب كثرة الفضول وتتبع عثرات الناس والتعرض من البلاء مالايطيق وإلقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك ويخرجون إتباع السنة ووصف الرب تعالى بماوصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في قالب التشبيه والتجسيم والتكليف ويسمون علو الله على خلق خلقه واستوائه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزاً ويسمون نزوله الى سماء الدنيا وقوله من يسألني فاعطيه تحركا وانتقالا ويسمون ماوصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ويسمون مايقوم به من أفعاله حوادث ومايقوم من صفاته أعراضاً ثم يتوصلون الى نفي ماوصف به نفسه بهذه الامور ويوهمون الاغمار وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تستلزم هذه الامور ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ ويردونه بعينه بلفظ آخر قال الله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً فسماه زخرفاً وهو القول الباطل لان صاحبه يزخرفه ويزينه مااستطاع ويلقيه الى سمع المغرور فيغتر به والمقصود أن الشيطان قد لزم ثغر الاذن أن يدخل فيها مايضر العبد ويمنع أن يدخل اليها ماينفعه وإن دخله بغير اختياره أفسد عليه

Marfat.com

فصل

ثم يقول قوموا على ثغر اللسان فانه الثغر الاعظم وهو قبالة الملك فاجروا عليه من الكلام مايضره ولا ينفعه وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحته عباده او التكلم بالعلم النافع ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان لاتبالون بايهما ظفرتم أحدهما التكلم بالباطل فانما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم الثاني السكوت عن الحق فان الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الاول أخ لكم ناطق وربما كان الاخ الثاني أنفع إخوانكم لكم أما سمعتم قول الناصح المتكلم بالباطل شيطان ناطق والساكت عن الحق شيطان أخرس فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق واعلموا يابني ان ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بنو آدم وأكبهم منه على مناخرهم في النار فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر وأوصيكم بوصية فاحفظوا لينطق أحدكم على لسان أخيه من الانس بالكلمة ويكون الآخر على لسان السامع فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ويطلب من أخيه إعادتها وكونوا أعوانا على الانس بكل طريق وأدخلوا عليهم من كل باب واقعدوا لهم كل مرصد أما سمعتم قسمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين أما ترونني قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها فلا يفوتني من طريق الا قعدت له من طريق غيره حتى أصبت منه حاجتي أو بعضها وقد حذرهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها قعد له بطريق الاسلام فقال له أتسلم وتذر دينك ودين آبائك فخالفه وأسلم فقعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتذر أرضك وسماءك فخالفه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد فتقتل ويقسم المال وتنكح الزوجة فخالفه وجاهد فهكذا فاقعدوا لهم بكل طريق الخير فاذا أراد أحدهم ان يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة فقولوا له في نفسه أتخرج المال وتبقى مثل هذا السائل وتصير بمنزلته أنت وهو سواء أو ما سمعتم ماالقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه قال أموالنا اذا أعطيناكم صرنا مثلكم واقعدوا له بطريق الحج فقولوا له طريقه مخوفة مشقة يتعرض سالكها لتلف النفس والمال وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعوبتها وآفاتها ثم اقعدوا على المعاصي فحسنوها في عين بني آدم وزينوها في قلوبهم

Marfat.com

واجعلوا أكبر أعوانكم على ذلك النساء فمن أبوابهن فادخلوا عليهم فنعم العون هن لكم ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين فامنعوها أن تبطش بما يضركم أو تمشي فيه واعلموا إن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الامارة فاعينوها واستعينوا بها وأمدوها واستمدوا منها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة فاجتهدوا في كسرها وابطال قواها ولا سبيل الى ذلك الا بقطع موادها عنها فاذا إنقطعت موادها وقويت مواد النفس الامارة وطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه وأعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس فانها لا تأمر الا بما تهوونه وتحبونه ولا تحبكم بما تكرهونه البتة مع إنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت الى فعله فان أحسستم من القلب منازعة الى مملكته وأردتم الامن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح فزينوها وجلوها وأروها إياه في أحسن صورة عروس توجد وقولوا له ذق حلاوة طعم هذا الوصال والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة فدع الحرب تضع أوزارها فليست بيوم وينقضي وإنما هو حرب متصل بالموت وقوالك يضعف عن الحرب دائم واستعينوا يابني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما احدهما جند الغفلة فاغفلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق فليس لكم شيء أبلغ من تحصيل غرضكم من ذلك فان القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنتم منه ومن أعوانه الثاني جند الشهوة فزينوها في قلوبهم وحسنوها في أعينهم وصولوا عليهم بهذين العسكرين فليس لكم في بني آدم أبلغ منهما واستعينوا على الغفلة بالشهوات وعلى الشهوات بالغفلة وأقرنوا بين الغافلين ثم استعينوا بهما على الذاكر ولا يغلب واحد خمسة فان مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة وشيطان الذاكر معهم واذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم تقدروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الانس البطالين فقربوهم منهم وشوشوا عليهم بهم وبالجملة فاعدوا الامور أقرانها وادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته فساعدوه عليها وكونوا له أعواناً على تحصيلها وإذا كان الله قد أمرهم بالصبر أن يصبروا لكم ويصابروكم ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادوا بني آدم في أعظم من هذين الموطنين واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور فخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب فلا تخلوا طريق الشهوة عليه ولا تعطلوا ثغرها فان من لم يملك نفسه

Marfat.com

عند الغضب فانه بالحري ان لايملكها عند الشهوة فزوجوا بين غضبه وشهوته وأمزجوا أحدهم بالآخر وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب والى الغضب من طريق الشهوة واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين وإنما أخرجت ابويهم من الجنة بالشهوة وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماؤهم وبه قتل أحد ابني آدم أخاه واعلموا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم والشهوة نار تثور من قلبه وإنما تطفى النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير وإياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة فان ذلك يطفي عنهم نار الغضب والشهوة وقد أمرهم نبيهم بذلك وقال إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم من إحمرار عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بذلك فليتوضأ وقال لهم إنما تطفي النار بالماء وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك وانسوهم إياه واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها الغفلة واتباع الهوى وأعظم أسلحتهم فيكم وأمنهم حصونهم ذكر الله ومخالفة الهوي فاذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظلمه ولا تدنوا منه والمقصود ان الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداه ويعينهم بها على نفسه فيقاتلونه بسلاحه والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل قال مايبلغ الاعداء من جاهل مايبلغ الجاهل من نفسه ومن العجائب أن العبد يسعي بنفسه في هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ويجتهد في حرمانها من حظوظها وإشرافها وهو يزعم أنه يسعى في حظها ويبذل جهده فى تحقيرها وتصغيرها وتدنيسها وهو يزعم انه يسعي في صلاحها ويعليها ويرفعها ويكبرها وكان بعض السلف يقول في خطبته ألارب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحقها وكفي بالمرأ جهلا أن يكون مع عدوه على نفسه يبلغ منها بفعله مالا يبلغه عدوه والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تنسى العبد نفسه فاذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها فان قيل كيف ينسي العبد نفسه وإذا نسى نفسه فاى شيء يذكره وما معني نسيانه نفسه قيل نعم ينسى نفسه أعظم نسيان قال تعالى ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى نسوا الله فنسيهم فعاقب

Marfat.com

سبحانه من نسيه عقوبتين أحدهما أنه سبحانه نسيه والثانية أنه أنساه نفسه ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ونسيانه فالهلاك أدنى اليه من اليد للفم وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وإصلاحها ومايكملها ينسيه ذلك كله جميعه فلا يخطر بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف اليه همته فيرغب فيه فانه لايمر بباله حتي يقصده ويؤثره وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها فلا يخطر بباله إزالتها وأصلاحها وايضا فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلايخطر بقلبه مداواتها ولا السعى في إزلة علها وأمراضها التي تؤول بها الى الفساد والهلاك فهو مريض مثخن بالمرض ومرضه مترام به الى التلف ولايشعر بمرضه ولايخطر بباله مداواته وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة فاي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها ودواءها وأسباب سعادتها وصلاحها وفلاحها وحياتها الابدية في النعيم المقيم ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن يوم يظهر للعبد أنه غبن فى العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار والتجارة التى أتجر فيها لمعاده. فان كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب إشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها فأذهبوا طيباتهم ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها في حياتهم الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا اليها وكان سعيهم لتحصيلها فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلا بعاجل ونسيئة بنقد وغائبا بناجز وقالوا هذا هو الزهرة ويقول أحدهم خذ ماتراه ودع شيئاً سمعت به فكيف أبيع حاضراً نقداشا هدا في هذه الدار بغائب نسيئه في دار أخري غير هذه وينضم الى ذلك ضعف الايمان وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببني الجنس فاكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله في أهلها أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلايخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون وقال فيهم فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين فاذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة فتنقطع عليهم انفاس حسرات وأما الرابحون فانهم باعوا فانيا بباق وخسيسا بنفيس وحقيرا بعظيم وقالوا ماقدار هذه الدنيا من أولها الى آخرها حتي نبيع حظنا من الله تعالي والدار الآخرة بها فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم لانسبة له إلى دار القرار البتة قال تعالى ويوم نحشرهم كأن لم يلبسوا إلاساعة من النهار يتعارفون بينهم وقال تعالى يسألونك عن الساعة

أيان مرساها فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها وقال تعالى كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ وقال تعالى كم لبثتم في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون وقال تعالى ويوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشرا نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم الا يوما فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة فلما علموا قلة لبثهم فيها وإن لهم دار غير هذه الدار دار الحيوان ودار البقاء راوا من اعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء فاتجروا تجارة الاكياس ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس فظهر لهم لتغابن ربح تجارتهم ومقدار ماشتروه وكل أحد فى هذه الدنيا بائع مشتر متجر وكل الناس يغد فبايع نفسه فمعتقها أوموبقها إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم فهذا أول نقد من ثمن هذا التجارة فناجروا أيها المفلسون ويامن لايقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر فان كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون والمقصود أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابحة وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها انها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل فان نعم الله ماحفظ موجودها بمثل طاعته ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته فأن ماعند الله لاينال الا بطاعته وقد جعل الله سبحانه لكل شئ سبباً وآفة سبباً يجلبه وآفة تبطله فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفاتها المانعة منها معصيته فاذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره وسماعا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصية الله كأنه مستثني من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم وكأن هذا

Marfat.com

أمر جار على الناس لاعليه وواصل الى الخلق لااليه فأى جهل أبلغ من هذا وأي ظلم للنفس فوق هذا فالحكم لله العلى الكبير

فصل

ومن عقوباتها أنها تباعد عن العبد وليه وأنصح الخلق له وأنفعهم له ومن سعادته في قربه منه وهو الملك الموكل به وتدنى منه عدوه وأغش الخلق له وأعظمهم ضرراً له وهو الشيطان فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية حتي انه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة وفي بعض الآثار إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه فاذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه وقال بعض السلف إذا ركب الذكر عجت الارض إلى الله وهربت الملائكة الى ربها وشكت إليه عظم مارأت وقال بعض السلف إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان فان ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان ولا يزال الملك يقرب من العبد حتي يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتتولاه الملائكة فى حياته وعند موته وعند مبعثه قال الله تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفعهم وأبرهم له فثبته وعلمه وقوي جنانه وأيده قال تعالى اذ يوحي ربك الى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ويقول الملك عند الموت لاتخف ولاتحزن وأبشر بالذى يسرك ويثبته بالقول الثابت أحوج مايكون اليه في الحياة الدنيا وعند الموت وفي القبر عند المسألة فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له وهو وليه في يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفي قبره ومؤنسه في وحشته وصاحبه في خلوته ومحدثه في سره ويحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويعينه عليه ويعده بالخير ويبشره به ويحثه على التصديق بالحق كما جاء في الاثر الذى يروى مرفوعا وموقوفاً للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة فامة الملك أيعاد بالخير وتصديق بالوعد ولمة الشيطان أيعاد بالشر وتكذيب بالحق وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه وألقى على لسانه القول السديد وإذا أبعد منه وقرب الشيطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش حتي يرى الرجل يتكلم على لسان الملك والرجل يتكلم على لسان الشيطان وفي الحديث ان السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول

Marfat.com

ماألقاها على لسانك الا الملك ويسمع ضدها فيقول ماألقاها على لسانك الاالشيطان فالملك يلقى في القلب الحق ويلقيه على اللسان والشيطان يلقي الباطل في القلب ويجريه على اللسان فمن عقوبة المعاصي أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته وتدني منه عدوه الذي شقاءه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته حتى ان الملك لينافح عن العبد ويرد عنه اذا سفه عليه السفيه وسبه كما اختصم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت فقال كان الملك ينافح عنك فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لاجلس واذا دعى العبد المسلم في ظهر الغيب لاخيه أمن الملك على دعائه فقال ولك بمثل ذلك وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه فاذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم استغفر له حملة العرش ومن حوله وإذا نام العبد المؤمن بات في شعاره ملك فالملك المؤمن يرد عليه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبته ويشجعه فلا يليق به أن ينسى جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده فانه ضيفه وجاره وإذا كان إكرام الضيف من الادميين والاحسان إلى الجار من لزوم الايمان وموجباته فما الظن باكرام أكرم الاضياف وخير الجيران وأبرهم وإذا أذى العبد الملك بأنواع المعاصى والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال لاجزاك الله خيراً كما يدعوا له إذا أكرمه بالطاعة والاحسان قال بعض الصحابة رضي الله عنهم إن معكم من لايفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم والأم ممن لايستحي من الكريم العظيم القادر ولايكرمه ولا يوقره وقد نبه سبحانه على هذا المعني بقوله وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون أى استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ماتستحيون أن يريكم عليه من هو مثلكم والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنوا آدم واذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه وان كان قد يعمل مثل عمله فما الظن باذى الملائكة الكرام الكاتبين والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تستجلب مراد هلاك العبد فى دنياه وآخرته فان الذنوب هي أمراض القلوب متى استحكمت قتلت ولا بد وكما أن البدن لايكون صحيحاً الا بغذاء يحفظ قوته واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الردية التي متي غلبت عليه أفسدته جميعه وحمية يمتنع بها من تناول مايؤذيه ويخشى ضرره فكذلك القلب لاتتم حياته الا بغذاء من

Marfat.com

الايمان والاعمال الصالحة تحفظ قوته واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الردية منه وحمية توجب له حفظ صحته ويجتنب مايضادها وهي عبارة عن ترك استعمال مايضاد الصحة والتقوى اسم يتناول هذه الامور الثلاثة فما فات منها فات من التقوى بقدره واذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الامور الثلاثة فانها يستجلب المواد المؤذية وتستوجب التخليط المضاد للجميع وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح فانظر الى بدن عليل قد تراكمت عليه الاخلاط ومواد المرض وهو لايستفرغها ولايحتمى لها كيف تكون صحته وبقاؤه ولقد أحسن القائل

جسمك بالحمية أحصنته * مخافة من ألم طاري
وكان أولى بك أن تحتمى * من المعاصي خشية الباري

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر واستعمل الحمية باجتناب النواهي واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح لم يدع للخير مطلباً ولا من الشر مهرباً وبالله المستعان

فصل

فان لم ترعك هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيراً في قلبك فاحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم كما قطع السارق في ثلاثة دراهم وقطع اليد والرجل على قطع الطريق على معصوم المال والنفس وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن أو قطرة خمر يدخلها جوفه وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الاحصان بمائة جلدة وبنفي سنة عن وطنه وبلده الى بلد الغربة وفرق بين رأس العبد وبدنه اذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر وأمر بقتل من وطئ ذكرا مثله وقتل المفعول به وأمر بقتل من أتي بهيمة وقتل البهيمة معه وغرم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة وغير ذلك من العقوبات التي رتبها الله على الجرائم وجعلها بحكمته على حسب الدواعي الى تلك الجرائم وحسب الوازع عنها فما كان الوازع عنها طبعيا وماليس في الطباع داعيا اليه إكتفاء بالتحريم مع التعزير ولم يرتب عليه حدا كأكل الرجيع وشرب الدم وأكل الميتة وما كان في الطباع داعيا اليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داع الطبع اليه ولهذا لما كان داع الطباع الى الزناء من أقوى الدواعي كانت من عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها وعقوبته السهلة على أنواع الجلد مع زيادة التعذيب ولما كان اللواطة فيها الامران كان حده القتل بكل حال ولما كان داعي السرقة قويا ومفسدتها كذالك قطع فيها اليد وتأمل حكمته

Marfat.com

في إفساد العضو الذى باشربه الجناية كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قعطه ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنابة إذ مفســدة قطعه تزيد على مفسدة الجناية ولايبلغها فاكتفى من ذلك بايلام جميع بدنه بالجلد فان قيل فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشربه المعصية قيل بوجوه أحدها أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية إذ فيه قطع النسل وتعرضه للهلاك الثانى أن الفرج عضو مستور لايحصل بقطعه مقصود الحدمن الردع والزجر لأمثاله من الجناية بخلاف قطع اليدالثالث انه إذا قطع يدهأبقى له يداأخرى تعوض عنها بخلاف الفرج الرابع ان لذة الزنا عمت جميع البدن فكان الاحسن ان تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجود وأوفقها للعقل وأقومها بالمصلحة والمقصود ان الذنوب إنما ترتب عليها العقوبات الشرعية والقدرية أو يجمعها الله العبد وقد يرفعها عمن تاب وأحسن

فصل

وعقوبات الذنوب نوعان شرعية وقدرية فاذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين الا اذا لم يف أحدهما يرفع موجب الذنب ولم يكن في زوال دائه واذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية وربما كانت دونها ولكنها تعم والشرعية تخص فان الرب تبارك وتعالى لايعاقب شرعا الامن باشر الجناية أوتسبب اليها وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة وخاصة فان المعصية إذا خفيت لم تضر إلاصاحبها وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة واذا رأي الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه وقدتقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع لها وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع القتل والقطع والجلد وجعل القتل بازاء الكفر ومايليه ويقربه وهو الزناء واللواطة فان هذا يفسد الاديان وهذا يفسد الانسان قال الامام أحمد رحمه الله لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزناء واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال يارسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال قلت ثم أي قال أن تزني بحايلة جارك فانزل تصديقها في كتابه والذين لايدعون مع الله آلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولايزنون الآية والنبي صلى الله الله عليه وسلم ذكر كل نوع أغلاه ليطابق جوابه سؤال السأل فانه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها وما هو أعظم كل نوع

Marfat.com

فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نداً وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشيةأن يشاركه في طعامه وشرابه وأعظم أنواع الزناء أن يزني بحليلة جاره فأن مفسدة الزناء تتضاعف بتضاعف ماانتهكه من الحق فالزناء بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي لازوج لها إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه وتعليق نسب عليه لم يكن منه وغير ذلك من أنواع أذاه فهو أعظم اثماً وجرماً من الزناء بغير ذات البعل فان كان زوجها جاراً له انضاف الى ذلك سوء الجوار واذا أجاره بأعلى أنواع الاذى وذلك من أعظم البوائق وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لايدخل الجنة من لايأمن جاره بوائقه ولا بائقه أعظم من الزناء بامرأته فالزناء بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزناء بامرأة الجار فان كان الجار أخاً له أو قريباً من أقاربه إنضم الى ذلك قطيعة الرحم فيتضاعف الاثم فان كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاةوطلب العلم والجهاد وتضاعف الاثم حتى ان الزاني بامرأة الغازي في سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقال خذ من حسناته ما شئت قال النبي صلى الله عليه وسلم فما ظنكم أي ماظنكم أنه يترك له من حسنات قد حكم في أن يأخذ منها ماشاء على شدة الحاجة الى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه فان اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف الى ذلك قطيعة رحمها فان اتفق أن يكون الزاني محصناً كان الاثم أعظم فان كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لايكلمهم الله يوم القيامةولا يزكيهم ولهم عذاب أليم فان اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عندالله كاوقات الصلاة وأوقات الاجابة تضاعف الاثم وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الاثم والعقوبة والله المستعان

فصل

وجعل سبحانه القطع باذاء افساد الاموال الذي لايمكن الاحتراز منه فان السارق لا يمكن الاحتراز منه لانه يأخذ الاموال في الاختفاء وينقب الدور ويتسور من غير الابواب فهو كالسنور والحية التي تدخل عليك من حيث لاتعلم فلم ترفع مفسدة سرقته الى القتل ولا تندفع بالجلد فاحسن مادفعت به مفسدته أبانة العضو الذي تسلط به على الجناية وجعل الجلد بأذاء إفساد العقول وتمزيق الاعراض بالقذف فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الانواع الثلاثة كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع العتق وهو أعلاها والاطعام والصيام ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة أقسام قسما فيه الحد فهذا لم يشرع فيه كفارة

Marfat.com

اكتفاء بالحد وقبلها لم يترتب عليه حد فشرع فيه الكفارة كالوطء في نهار رمضان والوطء في الاحرام والظهار وقتل الخطأ والحنث في اليمين وغير ذلك وقسما لم يترتب عليه حد ولا كفارة وهو نوعان أحدهما ما كان الوازع عنه طبيعياً كأكل العذرة وشرب البول والدم والثاني ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظرة والقبلة واللمس والمحادثة وسرقة فلس ونحو ذلك وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع أحدها ما كان مباح الاصل ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم كالوطء في الاحرام والصيام وطرده الوطء في الحيض والنفاس بخلاف الوطء في الدبر ولهذا كان الحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لايصح فانه لايباح في وقت دون وقت فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر النوع الثاني ماعقد لله من نذر أو مالله من يمين أوحرمه الله ثم أراد حله فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث كما ظنه بعض الفقهاء فان الحنث قديكون واجباً وقد يكون مستحباً وقد يكون مباحاً وانما الكفارة حل لما عقده النوع الثالث ماتكون فيه جابرة لما فات ككفارة قتل الخطأ وان لم يكن هناك اثم وكفارة قتل الصيد الخطأ وان لم يكن هناك إثم فان ذلك من باب الجوابر والنوع الاول من باب الزواجر والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد ولا يجتمع الحد والتعزير في معصية بل ان كان فيها حد اكتفى به وألا اكتفى بالتعزير ولا يجتمع الحد والكفارة في معصيه بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها وما فيه كفارة فلا حد فيه وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها فيه وجهان وهذا كالوطء في الاحرام والصيام ووطء الحائض اذا أوجبنا فيه الكفارة فقيل يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية وقيل لاتعزير في ذلك اكتفاء بالكفارة لانها جابرة وماحية

فصل

وأما العقوبات القدرية فهى نوعان نوع على القلوب والنفوس ونوع على الابدان والاموال والتي على القلوب نوعان أحدهما آلام وجودية يضرب بها القلب والثانى قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه واذا قطعت عنه حصل له اضدادها وعقوبة القلوب أشد العقوبتين وهى أصل عقوبة الابدان وهذه العقوبة تقوى وتتزايد حتى تسري من القلب الى البدن كما يسري ألم البدن الى القلب فاذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها فظهرت عقوبة القلب حينئذ وصارت علانية ظاهرة وهي المسماة بعذاب القبر

Marfat.com

ونسبته الى البرزخ كنسبة عذاب الابدان الى هذه الدار

فصل

والتي على الابدان أيضاً نوعان نوع في الدنيا ونوع في الآخرة وشدتها ودوامها بحسب مفاسدمارتب عليه في الشدة والخفة فليس في الدنيا والآخرة شرأصلا إلاالذنوب وعقوباتها فالشرإسم لذلك كله واصله من شرالنفس وسيئات الاعمال وهماالاصلان اللذان كان النبي صلي الله عليه وسلم يستعيذ منها في خطبته بقوله ونعوذ بالله من شرورأنفسنا ومن سيئات أعمالنا وسيئات الاعمال من شرورالنفس فعاد الشركله الى شرالنفس فان سيئات الاعمال من فروعه وثمراته وقد اختلف في معني قوله ومن سيئات أعمالنا هل معناه الىء من أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع الى جنسه أويكون بمعني من وقيل معناه من عقوباتها التي تسوء فيكون التقديرومن عقوبات أعمالنا التي تسوءنا ويرجح هذا القول أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر فان شرور الانفس تستلزم الاعمال السيئة وهي تستلزم العقوبات السيئة فنبه بشرور الانفس على ماتقتضيه من قبح الاعمال واكتفي بذكرها منه اوهي اصله ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهوالسيئات التي تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشروفروعه وغايته ومقتضاه ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقدرحمته فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الاعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها فانه سبحانه متي وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء وإن كان قوله ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته أظهرفي عقوبات الاعمال المطلوب وقايتهم يومئذ فان قيل فقدسألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة فدل على أن المراد السيئة التي سألوا وقايتها الاعمال السيئة ويكون الذي سأله الملائكة نظير ماستعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم ولايرد على هذا قوله يومئذ فان المطلوب وقاية شرور سيئات الاعمال ذلك اليوم وهي سيئات في نفسها قيل وقاية السيئات نوعان أحدهما وقاية فعلها بالتوفيق فلاتصدرمنهوالثاني وقاية جزائها بالمغفرة فلايعاقب عليها فتضمنت الآية نوال الامرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لابالجملة الطلبية وتأمل ماتضمنه هذا الخبرعن الملائكة من مدحهم بالايمان والعمل الصالح والاحسان الى المؤمنين بالاستغفار لهم وقدموا بين يدي استغفارهم وتوسلهم الى الله سبحانه بسعة علمه وسعة رحمته فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم ومازين لهم من الدنيا وزينتها وعلمه بهم إذانشأهم من الارض

Marfat.com

وإذهم أجنة في بطون أمهاتهم وعلمه السابق بانهم لابد أن يعصوه وأنه يحب العفو والمغفرة وغير ذلك من سعة علمه الذي لايحيط به أحد سواه وسعة رحمته تتضمن أنه لايهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته فانه واسع الرحمة لايخرج عن دائرة رحمته إلا الاشقياء ولاأشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل اليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر وترك مايكره فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل الذي يحبها ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من اصولهم وفروعهم وازواجهم جنات عدن التي وعدهم بها وهو سبحانه وإن كان لايخلف الميعاد فانه وعدهم بها باسباب من جملتها دعاء الملائكة لهم بان يدخلهم إياها يدخلونها برحمته التي منها أن وفقهم لاعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة إنك أنت العزيز الحكيم أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك فان العزة كمال القدرة والحكمة كمال العلم وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى مايشاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب فهاتان الصفتان مصدر الخلق والامر والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع الى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية وهي إما في القلب وإما في البدن وإما فيهما وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت وعقوبات يوم عود الاجسام في الدار الآخرة فالذنب لايخلو من عقوبة البتة ولكن لجهل العبد لايشعر بما هو فيه من العقوبة لانه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لايشعر بالالم فاذا استيقظ وصحي أحس بالمؤلم فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الاحراق على النار والكسر على الانكسار والاغتراف على الماء وفساد البدن على السموم والامراض الاسباب الجالبة لها وقد تقارن المضرة للذنب وقد تتأخر عنه إما يسير وإما مدة كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه وكثيراً مايقع الغلط للعبد في هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه ولا يدري أنه يعمل وعمله على التدريج شيئاً فشيئاً كما تعمل السموم والاشياء الضارة حذو القذة بالقذة فان تدارك العبد نفسه بالادوية والاستفراغ والحمية وإلا فهو صائر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة والله المستعان

فصل

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب وجوز وصولها اليك واجعل ذلك داعياً لنفسك الى هجرانها وأنا أسوق اليك منها طرفا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه فمنها الختم على القلوب والاسماع والغشاوة على الابصار والاقفال على القلوب

Marfat.com

وجعل الاكنة عليها والرين عليها والطبع عليها وتقليب الافئدة والابصار والحيلولة بين المرأ وقلبه واغفال القلب عن ذكر الرب وإنساء العبد نفسه وترك إرادة الله تطهير القلب وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كانما يصعد في السماء وصرف القلوب عن الحق وزيادتها مرضا على مرضها وإركاسها وإنكاسها بحيث تبقى منكوسة وذكر الامام أحمد عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه أنه قال القلوب أربعة فقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب اغلف فذلك قلب الكافر وقلب منكوس فذلك قلب المنافق وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما ومنها التثبط عن الطاعة والابتعاد عنها ومنها جعل القلب أصم لايسمع الحق أبكم لاينطق به أعمى لايراه فيصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لاينفعه غيره كالنسبة بين أذن الاصم والاصوات وعين الاعمى والالوان ولسان الاخرس والكلام وبهذا يعلم أن الصم والبكم والعمى للقلب بالذات والحقيقة والجوارح بالفرض والتبعية فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور وليس المراد نفى العمى الحسي عن البصر كيف وقد قال تعالى ليس على الاعمي حرج وقال عبس وتولى أن جاءه الاعمي وإنما المراد أن العمى التام على الحقيقة عمي القلب حتى أن عمي البصر بالنسبة اليه كالاعمى حتي يصح نفيه بالنسبة الى كماله وقوته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب وقوله صلي الله عليه وسلم ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لايسئل الناس ولايفطن له فيتصدق عليه ونظائره كثيرة والمقصود أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان ومافيه فيخسف به الى أسفل سافلين وصاحبه لايشعر وعلامة الخسف به أنه لايزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه اليه لايزال جوالا حول البر والخير ومعالي الامور والاعمال والاقوال والاخلاق قال بعض السلف إن هذه القلوب جوالة فمنها مايجول حول العرش ومنها مايجول حول الحشر ومنها مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته فمن القلوب مايمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ومنها مايمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم قال منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير ومنهم من يتطوس في ثيابه لحماً بتطوس الطاووس في ريشه ومنهم من يكون بليد كالحمار ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام ومنهم الحقود

كالجمل ومنهم الذى هو خير كله كالغنم ومنهم أشباه الذئاب ومنهم أشباه الثعالب التي يروغ كروغانها وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغى بالحمر تارة وبالكلب تارة وبالانعام تارة وتقوي هذه المشابهة باطناً حتي تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً يراه المتفرسون ويظهر فى الاعمال ظهوراً يراه كل أحد ولا يزال يقوي حتي تملو الصورة فتنقلب له الصورة باذن الله وهو المسخ التام فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل باليهود وأشباههم ويفعل بقوم من هذه الامة ويمسخ قردة وخنازير فسبحان الله كم من قلب منكوس وصاحبه لايشعر وقلب ممسوخ وقلب محسوف به وكم من مفتون بثناء الناس عليه ومغرور بستر الله عليه ومستدرج بنعم الله عليه وكل هذه عقوبات وإهانة ويظن الجاهل أنها كرامة ومنها مكر الله بالماكر ومخادعته للمخادع واستهزاؤه بالمستهزئ وإزاغته لقلب الزائغ عن الحق ومنها نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً والحق باطلا والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ويفسد ويرى أنه يصلح ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعى اليها ويشتري الضلالة بالهدى وهو يرى أنه على الهدى ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب ومنها حجاب القلب عن الرب في الدنيا والحجاب الاكبر يوم القيامة كما قال تعالى كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا اليها فيروا مايصلحها ويزكيها وما يفسدها ويشقيها وإن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب اليه فتفوز بقربه وكرامته وتقر به عيناً وتطيب به نفساً بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة قال تعالى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ولا ريب أنه من المعيشة الضنك والآية تتناول ماهو أعم منه وإن كانت نكرة في سياق الاثبات فان عمومها من حيث المعني فانه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الاعراض عن ذكره فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه وان تنعم في الدنيا باصناف النعم ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي يقطع القلوب والاماني الباطلة والعذاب الحاضر مافيه وإنما تواريه عند سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم الى ذلك سكر الخمر فسكر هذه الامور أعظم من سكر الخمر فانه يفيق صاحبه ويصحوا وسكر الهوى وحب الدنيا لايصحوا صاحبه الا إذا سكر في عسكر الاموات فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده ولا تقر العين ولا

Marfat.com

يهدى القلب ولا تطمئن النفس الا بألهها ومعبودها الذي هو حق وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً كما قال تعالى من عمل صالحاً من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون فضمن لأهل الايمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسني يوم القيامة فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين ونظير هذا قوله تعالى وللذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ونظيرها قوله تعالى وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين فان طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ولا نسبة لنعيم البدن اليه فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف وقال آخر انه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب وقال الآخر ان في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذه الجنة بقوله اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر وقال ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ولا تظن ان قوله تعالى ان الابرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم يختص بيوم المعاد فقط بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته وهل عيش في الحقيقة الا عيش القلب السليم وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة القلب فقال وإن من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم وقال حاكياً عنه أنه قال يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده من الله وسلم من كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره وسلم من كل إرادة تزاحم مراده وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد ولا يتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة وشهوة تخالف الامر وغفلة تناقض الذكر وهو يناقض التجريد والاخلاص يعم وهذه الخمسة حجب عن الله وتحت كل واحد منها

Marfat.com

أنواع كثيرة تتضمن افراد الاشخاص لاتحصر ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته الى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم فليس العبدأحوج الى شيء منه الى هذه الدعوة وليس شيء أنفع منها فان الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادة وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لايعلمها وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه ومايعلمه قد يقدر عليه وقد لايقدر عليه وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه ومايقدر عليه قد تريده نفسه وقد لاتريده كسلا وتهاونا أو لقيام مانع وغير ذلك وما تريده قد يفعلهوقدلايفعلهومايفعله قديقوم بشروط الاخلاص وقد لايقوم وما يقوم فيه بشروط الاخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لايقوم وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد صرف قلبه عنه وهذا كله واقع سارفي الخلق فمستقل ومستكثر وليس في طباع العبد الهداية الى ذلك كله بل متي وكل الى طباعه حيل بينه وبين ذلك وهذا هو الاركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم فاعادهم الى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه وقدره وأمره ونهيه فيهدي من يشاء الى صراط مستقيم بفضله ورحمته وجعل الهداية حيث تصلح ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل وذلك موجب صراط المستقيم الذي هو عليه فهو على صراط مستقيم و نصب لعباده من أمره صراطاً مستقيما دعاهم جميعاً اليه حجة منه وعدلا وهدى من يشاء منهم الى سلوكه نعمة منه وفضلا ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه فاذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيما يوصلهم الى جنته ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا وأقام من أقام في الدنيا وجعل نو المؤمنين به وبرسوله وماجاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نوراً ظاهراً لهم يسعى بين أيديهم وبايمانهم في ظلمة الحشر وحفظ عليهم نورهم حتي يقطعوه كما حفظ عليهم الايمان حتي لقوه وأطفى نور المنافقين أحوج ما كانوا اليه كما أطفأه من قلوبهم في الدنياوأقام أعمال العصاة بجنبتي الصراط كلاليب وحسكا تخطفهم كما تخطفهم فى الدنياعن الاستقامة عليه وجعل على قدر سيرهم وسرعتهم اليه في الدنيا ونصب للمؤمنين حوضا يشربون منه بازاء شربهم من شرعه في الدنيا وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا فنظروا الى الآخرة كانها رأي عين وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين تعلم حينئذ علماً يقيناً لاشك فيه ان الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وانموذجها وأن منازل الناس فيهامن السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الايمان والعمل الصالح وضدها .وبالله التوفيق فمن

أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط في الدنيا والآخرة

فصل

ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها ونحن نذكر فيها بعون الله فصلا وجيزا جامعا فنقول أصلها نوعان ترك مأمور وفعل محظور وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه أبوي الجن والانس بهما وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح وباطنا في القلوب وباعتبار متعلقه الى حق الله وحق خلقه وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه لكن سمى حقاً للخلق لانه يجب بمطالبتهم ويسقط باسقاطهم ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام ملكية وشيطانية وسبعية وبهيمية لاتخرج عن ذلك فان الذنوب الملكية ان من يتعاطاها لا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة والكبرياء والجبروت والقهر والعلو والظلم واستعباد الخلق ونحو ذلك ويدخل فى هذا الشرك بالرب تعالى وهو نوعان شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخري معه وشرك به في معاملته وهذا الثاني قد لايوجب دخول النار وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره وهـذا القسم اعظم انواع الذنوب ويدخل فيه القول على الله بلاعلم فى خلقه وامره فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيته وملكيه وجعل له نداً وهذا أعظم الذنوب عند الله ولا ينفع معه عمل

فصل

وأما الشيطانية فالتشبه بالشيطان في الحسد والبغي والغش والغل والخداع والمكر والامر بمعاصي الله وتحسينها والنهى عن طاعة الله وتهجينها والابتداع فى دينه والدعوة الى البدع والضلال وهذا النوع يلى النوع الاول في المفسدة وان كانت مفسدته دونه

فصل

وأما السبعية فذنوب العدوان والغضب وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والعاجزين ويتولد منها أنواع أذي النوع الانساني والجرأة على الظلم والعدوان وأما الذنوب البهيمية فمثل الشرة والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنها يتولد الزنا والسرقة وأكل أموال اليتامى والبخل والشح والحين والهلع والجزع وغير ذلك وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ومنه يدخلون الى سائر الاقسام فهو يجرهم اليها بزمام فيدخلون منه الى الذنوب السبعية ثم إلى الشيطانية ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له ان الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبية

Marfat.com

﴿ فصل ﴾

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائروصغائر قال الله تعالى إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفرعنكم سيئاتكم وقال تعالى والذين يجتنبون كبائرالاسم والفواحش إلااللمم وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لمابينهن إذا اجتنبت الكبائروهذه الاعمال المكفرة لها ثلاث درجات أحدها أن تقصرعن تكفيرالصغائر اضعفها وضعف الاخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء للضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية الثانية أن تقاوم الصغائر ولاترتقي الى تكفير شئ من الكبائر الثالثة أن تقوى على تكفير الصغائروتبقى فيها قوة تكفربها بعض الكبائرفتأمل هذا فانه يزيل عنك إشكالات كثيرة وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الاأنبئكم باكبر الكبائر قلنا بلى يارسول الله فقال الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وروي في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يارسول الله قال الاشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الذنب أكبر عند الله قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك قيل ثم أي قال ان تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قيل ثم أي قال أن تزني بحليلة جارك فانزل الله تعالى تصديقها والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله الابالحق ولايزنون الآية واختلف الناس في الكبائر هل لها عدد يحصرها على قولين ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها فقال عبد الله بن مسعود هي اربعة وقال عبد الله بن عمر هي سبعة وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص هي تسعة وقال غيره هي إحدي عشر وقال آخر هي سبعون وقال أبوا طالب المكى جمعتهامن أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب وهي الشرك بالله والاصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والامن من مكر الله وأربعة في اللسان وهي شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر وثلاثة في البطن شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا واثنتان في الفرج وهما الزنا واللواطة واثنتان في اليدين وهما القتل والسرقة وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهي عقوق الوالدين والذين لم يحصروها بعدد منهم من قال كلما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة وما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو صغيرة وقالت طائفة ماقترن بالنهى عنه وعيد من لعن

Marfat.com

أو غضب أوعقوبة فهو كبيرة ومالم يقرن به من ذلك شئ فهوصغيرة وقيل كلما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة وما لم يرتب عليه لاهذا ولا هذا فهو صغيرة وقيل كلما اتفقت الشرائع على تحريمه فهومن الكبائروما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة وقيل كلما لعن الله أورسوله فاعله فهوكبيرة وقيل كلما ذكرمن أول سورة النساء الى قوله إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم والذين لم يقسموها الى كبائر وصغائر قالوا الذنوب كلها بالنسبة الى الجراءة على الله سبحانه معصيته ومخالفة أمره كبائر فانظر الى من عصى أمره وانتهك محارمه توجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية في هذه المفسدة قالوا ويوضح هذا إن الله سبحانه لانضره الذنوب ولايتأثربها فلايكون بعضها بالنسبةاليه أكبر من بعض فلم يبق الامجرد معصيته ومخالفتهولافرق في ذلك بين ذنب وذنبقالوا ويدل عليه أنمفسدة الذنب تابعة للجراءةوالتوثب على حق الرب تبارك وتعالى ولهذالوشرب رجل خمرا أووطأ فرجاحراما وهولا يعتقد تحريمه لكانقدجمع بين الجهل وبينمفسدة ارتكاب الحرام ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان أتى باحد المفسدتين وهو الذي يستحق العقوبة دون الاول فدل على ان مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب قالوا ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بامر المطاع ونهيه وإنتهاك حرمته وهذا لافرق فيه بين ذنب وذنب قالوا فلا ينظر العبد الى كبر الذنب وصغره في نفسه ولكن ينظر الى قدر من عصاه وعظمته وانتهاك حرمته بالمعصية وهذا لايقترن فيه الحال بين معصية ومعصية فان ملكا عظيما مطاعاً لو أمر احد مملوكيه أن يذهب في مهم له الى بلد بعيد وأمر آخر ان يذهب في شغل له الى جانب الدار فعصياه وخالفا أمره لكانا في مقته والسقوط من عينه سواء قالوا ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ولوكان مع رجل مائتا درهم فمنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف درهم فمنع زكاتها لايستويا في منع ماوجب على كل واحد منهما ولا يبعد استواؤهما فى العقوبة اذا كان كلا منهما مصر على منع زكاة ماله قليلا كان المال أو كثيراً

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال إن الله عزوجل أرسل رسله وأنزل كتبه وخاق السموات والارض ليعرف ويعبد ويوجد ويكون الدين كله له والطاعة

Marfat.com

كلها له والدعوة له كما قال تعالى وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون وقال تعالى وماخلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وقال تعالى الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً وقال تعالى جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافي السموات ومافي الارض وأن الله بكل شيء عليم فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والامران يعرف باسمائه وصفاته ويعبد وحده لايشرك به وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السموات والارض كما قال تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ومن أعظم القسط التوحيد بل هو رأس العدل وقوامه وان الشرك ظلم كما قال تعالى إن الشرك لظلم عظيم فالشرك أظلم الظلم والتوحيد أعدل العدل فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات فتأمل هذا الاصل حق التأمل واعتبر به تفاصيله تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الاطلاق وحرم الله الجنة على كل مشرك وأباح دمه وماله وأهله لاهل التوحيد وان يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملا أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له في الآخرة دعوة أو يقبل له فيها عثرة فان المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه نداً وذلك غاية الجهل به كما انه غاية الظلم منه وان كان المشرك لم يظلم ربه وانما ظلم نفسه ووقعت مسألة وهي ان المشرك انما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى أوانه لعظمته لاينبغي الدخول عليه الابالوسائط والشفعاء كحال الملوك فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه وقال إنما اعبد هذه الوسائط لتقربني اليه وتدخاني عليه فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء فلم كان هذا القدر موجب لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلداً في النار وموجباً سفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم وترتب على هذا سؤال آخر وهو أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب اليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع أم ذلك قبيح في الفطر والعقول يمتنع أن تأتي به شريعة بل جاءت بتقرير ما في الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح وما السبب في كونه لايغفره من دون

Marfat.com

سائر الذنوب كما قال تعالى إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه فان به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين وأهل الجنة وأهل النار فنقول وبالله التوفيق والتأييد ومنه نستمد المعونة والتسديد فانه من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادى له ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع الشرك شركان شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله وشرك في عبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لاشريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله والشرك الاول نوعان أحدهما شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون إذ قال وما رب العالمين وقال تعالى مخبراً عنه أنه قال وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وإني لأظنه كاذباً فالشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك لكن لايستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته ولكن عطل حق التوحيد وأصل الشرك وقاعدته التي ترجع اليها هو التعطيل وهو ثلاثة أقسام تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وافعاله وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ماثم خالق ومخلوق ويقولون ههنا شيئآن بل الحق المنزه وهو عين الخلق المشبه ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وانه لم يكن معدوماً أصلا بل لم يزل ولا يزال والحوادث باسرها مستندة عندهم الى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ليسمونها العقول والنفوس ومن هذا شرك من عظيم أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسما ولا صفة بل جعلوا المخلوق أكمل منه إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها

فصل

النوع الثاني شرك من جعل معه إلها آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته كشرك النصاري الذي جعلوه ثالث ثلاثة فجعلوا المسيح إلها وأمه إلها ومن هذا شرك المجوس القائلين باسناد حوادث الخير الى النور وحوادث الشر إلى الظلمة ومن هذا شرك القدرية القائلين بان الحيوان هو الذى يخلق أفعال نفسه وانها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته ولهذا كانوا من أشباه المجوس ومن هذا شرك الذي حاج ابراهيم في ربه إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت فهذا جعل نفسه نداً لله يحيي ويميت بزعمه كما يحيي

Marfat.com

الله ويميت فالزمه ابراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته ان طرد قوله أن تقدر على الاتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل بل الزاما على طرد الدليل إن كان حقا ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها أربابا مدبرة لامر هذا العالم كما هو مذهب مشركى الصائبة وغيرهم ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الآله على الحقيقة ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل اليه والانقطاع اليه أقبل عليه واعتنى به ومنهم من يزعم ان معبودهم الادني يقر به الى المعبود الذي هو فوقه والفوقاني يقر به الى من هو فوقه حتي تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل

فصل

وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك وأخف أمرا فانه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله وانه لا إله غيره ولا رب سواه ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته بل يعمل لحظ نفسه تارة وطلب الدنيا تارة ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة فلله من عمله وسعيه نصيب ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب وللخلق نصيب هذا حال أكثر الناس وهو الشرك الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن حبان في صحيحه الشرك في هذه الامة اخفى من دبيب النمل قالوا وكيف نجوا منه يارسول الله قال قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم فالرياء كله شرك قال تعالى قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلى إنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً أي كما انه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده فكما تفرد بالالهية يجب أن يفرد بالعبودية فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء المقيد بالسنة وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لاحد فيه شيئاً وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل وقد يعاقب عليه اذا كان العمل واجبا فانه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الامر فان الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذي أتي به شئ غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه ويقول الله تعالى أنا أغني الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك معى فيه غيري فهو للذى أشرك به

Marfat.com

وأنا منه برئ وهذا الشرك ينقسم الى مغفور وغير مغفور وأكبر وأصغر والنوع الاول ينقسم الى كبير وأكبر وليس شيء منه مغفور فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بان يحب مخلوقا كما يحب الله فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا الاية وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ومعلوم أنهم ماسووهم به سبحانه في الخلق والرزق والاماتة والاحياء والملك والقدرة وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل وهذا غاية الجهل والظلم فكيف يسوي من خلق من التراب برب الارباب وكيف يسوي العبيد بمالك الرقاب وكيف يسوي الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته الا العدم بالغنى بالذات القادر بالذات الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته فاي ظلم أقبح من هذا وأى حكم أشد جورا منه حيث عدل من لا عدل له بخلقه كما قال تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فعدل المشرك من خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا في الارض فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه

فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه فى الاقوال والافعال والارادات والنيات فالشرك في الافعال كالسجود لغيره والطواف بغير بيته وحلق الرأس عبودية وخضوعا لغيره وتقبيل الاحجار غير الحجر الاسود الذى هو يمين الله في الارض أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم من اتخذ قبور الانبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها فكيف بمن اتخذ القبور أوثانا يعبدها من دون الله وفي الصحيحين عنه أنه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وفي الصحيح عنه أن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد وفي الصحيح أيضاً عنه أن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك وفي مسند الامام أحمد رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وسلم لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج وقال اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقال إن من كان قبلكم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على

Marfat.com

قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر فكيف حال من سجد للقبر بنفسه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد أعظم حماية حتي نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلايكون ذريعة الى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين وسد الذريعة بان منع الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس وأما السجود لغير الله فقال لاينبغى لأحد أن يسجد لأحد إلا لله ولا ينبغي في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم للذي هوفي غاية الامتناع شرعا كقوله تعالى وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا وقوله وما علمناه الشعر وما ينبغى له وقوله وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى له وقوله عن الملائكة ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء

فصل

ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره كمارواه أحمد وأبوداودعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وصححه الحاكم وابن حبان ومن ذلك قول القائل للمخلوق ماشاء الله وشئت كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل ماشاء الله وشئت قال أجعلتني لله نداً قل ماشاء الله وحده وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله لمن شاء منكم أن يستقيم فكيف من يقول أنامتوكل على الله وعليك وأنا فى حسب الله وحسبك ومالى إلا الله وأنت وهذا من الله ومنك وهذا من بركات الله وبركاتك والله لى في السماء وأنت لي في الارض ويقول والله وحياة فلان أو يقول نذراً لله ولفلان وأنا تائب لله ولفلان أو أرجوا الله وفلانا ونحو ذلك فوازن بين هذه الالفاظ وبين قول القائل ما شاء الله وشئت ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك ان قائلها أولى لجواب النبي صلى الله عليه وسلم لقائل تلك الكلمة وانه اذا كان قد جعله نداً لله بها فهذا قد جعل من لايداني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من الاشياء بل لعله أن يكون من أعدائه نداً لرب العالمين فالسجود والعبادة والتوكل والانابة والتقوى والخشية والتحسب والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً والطواف بالبيت والدعاء كل ذلك محض حق الله لايصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل وفي مسند الامام أحمد أن رجلا أتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم قد

Marfat.com

أذنب ذنباً فلما وقف بين يديه قال اللهم إني أتوب اليك ولاأتوب الى محمد فقال قد عرف الحق لاهله

فصل

واما الشرك في الارادات والنيات فذلك البحر الذي لاساحل له وقل من ينجو منه فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب اليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته والاخلاص أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته وهذه هي الحنيفية ملة ابراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الاسلام كما قال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وهي ملة ابراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء

فصل

واذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول ومن الله وحده نستمد الصواب حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو التشبيه في الحقيقة لااثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأركسه بلبسه الامر وجعل التوحيد تشبيهاً والتشبيه تعظيما وطاعة فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الالهية فان من خصائص الالهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبه بالخالق وجعل من لايملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا أفضل من غيره تشبيهاً بمن له الامر كله فازمة الامور كلها بيديه ومرجعها اليه فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن لامانع لما أعطى ولا معطي لما منع بل إذ فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد وإن أمسكها عنه لم يرسلها اليه أحد فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لانقص فيه بوجه من الوجوه وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده ويمنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لاشبيه له ولا ند له وذلك أقبح التشبيه وأبطله ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده انه لايغفره مع انه كتب

Marfat.com

عا نفسه الرحمة ومن خصائص الالهية العبودية التي قامت على ساقين لاقوام لها بدونهما غاية الحب مع غاية الذل هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الاصلين فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واحتالتهم عنها ومضى على الفطرة الاولى من سبقت له من الله الحسني فارسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم فازدادوا بذلك نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء اذا عرف هذا فمن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به ومنها التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به ومنها الحلف باسمه تعظيما وإجلالا فمن حلف بغيره فقد شبهه به هذا فى جانب التشبيه وأما في جانب التشبه به فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس الى اطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عزوجل العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والالهية كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون يقال لهم أحيوا ماخلقتم وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ، الله عزوجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة فنبه بالذرة والشعيرة على ماهو أعظم منهما وأكبر والمقصود ان هذا حال من تشبه به في صنعة صورة فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لاينبغي إلا لله وحده كملك الاملاك وحاكم الحكام ونحوه وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان أخنع الاسماء عند الله رجل يسمى بشاهان شاه ملك الملوك ولا ملك الا الله وفي لفظ أغيظ رجل على الله رجل يسمي بملك الاملاك فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لاينبغي الاله فهو سبحانه ملك الملوك وحده وهو حاكم الحكام وحده فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ويقضي عليهم كلهم لاغيره

Marfat.com

﴿ فصل ﴾

إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به فان المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقـدس فظن به ما يناقض أسماؤه وصفاته ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً وقال تعالى لمن أنكر صـفة من صفاته وذلـكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فاصبحتم من من الخاسرين وقال تعالى عن خليله ابراهيم إنه قال لقومه ماذا تعبدون أإفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنـكم برب العالمين أي فما ظنكم أي يجـازيكم به إذا لقيتموه وقـد عبدتم غيره وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره وما ظننتم باسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك الى عبودية غيره فلو ظننتم به ماهو أهـله من أنه بكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير وانه غني عن كل ماسواه وكل ماسواه فقير اليه وأنه قائم بالقسط على خلقه وأنه المتفرد بتدبير خلقه لايشرك فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور فلايخفي عليه خافية من خلقه والكافي لهم وحده فلايحتاج الى معين والرحمن بذاته فلايحتاج في رحمته الى من يستعطفه وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فانهم يحتاج الى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم والي من يعينهم على قضاء حوائجهم والى من يسترحمهم والى من يستعطفهم بالشفاعة فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم فأما القادر على كل شيء الغني عن كل شيء الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء فادخال الوسائط بينه وبين خلقه نقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء وهذا يستحيل ان يشرعه لعباده ويمتنع في العقول والفطر وقبحه مستقر في السليمة فوق كل قبيح يوضع هذا ان العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له ورب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع وهذا خالص حقه فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه ولاسيما الذى جعل شريكه فى حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم الآية أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريك له في رزقه فكيف تجعلون لى من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد وهو الالهية التى لاتنبغي لغيري ولا تصح لسوائي فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري ولا عظمني حق عظمتي ولا أفردني بما أنا متفرد به وحدي دون خلقي فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى ياأيها الناس ضرب مثلا فاستمعوا له

Marfat.com

إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له الى قوله لقوي عزيز فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره وإن يسلبهم الذباب شيئاً مما عليه لم يقدروا على الاستعاذة منه قال تعالى وما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة الآية فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شئ من ذلك البتة بل هو أعجز شئ وأضعفه فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل وكذلك ماقدره حق قدره من قال انه لم يرسل الى خلقه رسولا ولا أنزل كتابا بل نسبه الى مال يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدي وخلقهم باطلا عبثا وكذا ماقدره حق قدره من نفي حقائق أسمائه الحسني وصفاته العلى فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ونفى عموم قدرته وتعلقها بافعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم فاخرجها عن قدرته ومشيئته وجعلهم يخلقون لانفسهم مايشاؤن بدون مشيئة الرب فيكون في ملكه مالايشاء ويشاء مالا يكون فتعالى عن قوله أشباه المجوس علواً كبيراً وكذلك ماقدره حق قدره من قال أن يعاقب عبده على مالا يفعله عبده ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة بل هو نفس فعل الرب جل جلاله فيعاقب عبده على فعله فهو سبحانه الذي جبر العبد عليه وجبره على الفعل أعظم من أكراه المخلوق للمخلوق وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول إن السيد لو أكره عبده على فعل أو الجأه اليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لايكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بارادته ولا فعله البتة ثم يعاقب عليه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقول هؤلاء شر من أشباه قول المجوس والطائفتان ماقدروا الله حق قدره وكذلك ماقدره حق قدره من لم ينزهه عن نتن ولا حش ولا مكان يرغب عن ذكره بل جعله في كل مكان وصانه عن عرشه أن يكون مستويا عليه اليه تصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وتعرج الملائكة والروح وتنزل من عنده وتدبر الامر من السماء الى الارض ثم تعرج اليه فصانه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله في كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه وما قدروا الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته ولا من نفي حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله ولا من نفى حقيقة فعله ولم يجعل له فعلا اختياريا يقوم به بل أفعاله مفعولات متفصلة عنه فنفي حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسي من جانب الطور ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه الى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره

Marfat.com

وكذلك لم يقدره حق قـدره من جعل له صاحبة وولداً وجعله سبحانه يحل في جميع مخلوقاته أوجعله عين هذا الوجود وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأعلى ذكرهم وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعزووضع أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أين ماثقفوا وهذا يتضمن غاية القدح فى جناب الرب تعالي عن قول الرافضة علواً كبيرا وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين إنه أرسل ملكا ظالما فادعا النبوة لنفسه وكذب على الله وأخذ زمانا طويلا يكذب على الله كل وقت ويقول قال كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم ويقول الله أباح لى ذلك والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه ويقربه ويجيب دعواته ويمكنه ممن يخالفه ويقيم الادلة على صدقه ولايعاديه أحدالاظفر به فيصدقه بقوله وفعله وتقريره وتحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شئ الي يوم القيامة ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالي وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته تعالى الله عن قول الجاحدين علوا كبيرا فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما * باسحم داج عوض لايتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم وان كل الامرين بالنسبة اليه وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فمعناه للخبر لاللمخالفة حكمته وعدله وقد انكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الانكار وجعل الحكم به من أسوء الاحكام وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لايحي الموتى ولايبعث من في القبور ولايجمع الخلق ليوم يجازى المحسن فيه باحسانه والمسئ فيه باساءته ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ويكرم للمتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بافضل كرامته ويبين لخلقه الذى يختلفون فيه ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ونهيه فارتكبه وحقه فضيعه وذكره فاهمله وغفل قلبه عنه وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله فلله الفضلة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله وسواه المقدم في ذلك لانه المهم عنده يستخف بنظر الله اليه واطلاعـه عليه وهو في قبضته وناصيته بيده ويعظم نظر المخلوق اليه وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ويستخفي من الناس ولايستخفى من الله ويخشي الناس ولايخشي الله ويعامل الخلق بافضل ماعنده وما يقدر عليه وإن عامل

Marfat.com

الله عامله باهون ماعنده وأحقره و'ن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة وقد افرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه حتي إذا قام في حق ربه ان ساعد القدر قام قياماً لايرضاه مخلوق من مخلوق مثله وبذل له من ماله مايستحي أن يواجه به مخلوق مثله فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء فلو جعل له من أقرب الخلق اليه شريكا في ذلك لكان ذلك جراءة وتوثباً على محض حقه واستهانة به وتشريكا بينه وبين غيره فيما لاينبغي ولا يصلح الاله سبحانه فكيف وإنما أشرك معه أبغض الخلق اليه وأهونهم عليه وأمقتهم عنده وهو عدوه على الحقيقة فانه ماعبد من دون الله الاالشيطان كما قال تعالى ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم وما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فالشيطان يدعو المشركين الى عبادته ويوهمهم أنه ملك كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون إنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج ولهذا اذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له وكذلك عند غروبها وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وانما عبد الشيطان فانه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه لاعبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيدل هذا كله على قوله تعالى ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان الا وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود في حصول إغراضه ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان ولهذا قال تعالى ويوم نحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس أي من إغوائهم وإضلالهم وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم فهذه إشارة لطيفة الى السر الذي لاجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله وانه لايغفره بغير التوبة منه وإنه يوجب الخلود في النار وانه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلهاً غيره كما يستحيل عليه ماينافض أوصاف كماله ونعوت

Marfat.com

جلاله وكيف يظن بالمتفرد بالربوبية والالهية والعظمة والاجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضي به تعالى الله ذلك علوا كبيرا.

فصل

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق أمر لاجله بالامر الذي كان من أكبر الكبائر عند الله وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم فان الله سبحانه خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده والشرك والكبر ينافيان ذلك ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ولا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر

فصل

ويلى ذلك في كبر المفسدة القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ماوصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والامر وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب فان صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله فان المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله كما أن من أقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك لكن جعل معه شريكا في بعض الامور تقرباً اليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكا هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول فاين القدح فى صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب اليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالا فداء التعطيل هذا الداء العضال الذي لادواء له ولهذا حكى الله عن امام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السموات فاطلع الى إله موسى وإني لاظنه كاذباً واحتج الشيخ أبو الحسن الاشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب وهو كتاب اجتماع الجيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية في إثبات العلوم والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان ولما كانت هذه البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيباً بما أخبر به عن عن نفسه وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم عنادا وجهلا كانت من أكبر الكبائر ان قصرت عن الكفر وكانت أحب الى إبليس من كبار الذنوب كما قال بعض السلف البدعة أحب الى إبليس من المعصية لان المعصيه يتاب منها والبدعة لايتاب منها وقال ابليس لعنه الله أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بلاإله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك

Marfat.com

ثبتت فيهم الاهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لانهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ومعلوم أن المذنب انما ضرره على نفسه وأماالمبتدع فضرره على النوع وفتنة المبتدع في أصل الدين وفتنة المذنب في الشهوة والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه والمذنب ليس كذلك والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله والمذنب ليس كذلك والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والعاصي ليس كذلك والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيان للعدل الذي قامت به السموات والارض وأرسل الله سبحانه رسله صلى الله عليهم وسلم وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كان أي الظلم من أكبر الكبائر عند الله وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه وكأن قتل الانسان ولده الطفل الصغير الذي لاذنب له وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة وقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشده وكذلك قتله أبويه الذين كانا سبب وجوده وكذلك قتله ذات رحمه وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه وإستحقاق من قتله السعي في إبقائه ونصيحته ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبي ويليه من قتل إماماعادلا أوعالماً يأمر الناس بالقسط ويدعوهم الى الله سبحانه وينصحهم في دينهم وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود في النار وغضب الجبار ولعنته وإعداد العذاب العظيم له هذا موجب قتل المؤمن عمدا مالم يمنع منه مانع ولاخلاف ان الاسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختيارا مانع من نفوذ ذلك الجزاء وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه قولان للسلف والخلف وهما روايتان عن أحمد والذين قالوا لاتمنع التوبة من نفوذه رأوا انه حق لآدمي لم يستوفه في دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلا بدأن يستوفى له في دار العدل قالو فما استوفاه الوارث فانما استوفي محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه وأي استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه وهذا أصح القولين في المسألة أن حق المقتول لايسقط باستيفاء الوارث وهي وجهان لاصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث فان التوبة تهدم ماقبلها والذنب الذي قد جناه قد أقيم عليه حده قالوا وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر وهما أعظم اثما من القتل فكيف تقصر عن محو أثر القتل وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم وجعلهم

من خيار عباده ودعا الذين أحرقوا أولياءهم وفتنوهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة وقال تعالى ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا وهذا فى حق التائب وهي تتناول الكفر فما دونه قالوا وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه قالوا وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ولا يمكن تسليمها إلى المقتول فاقام الشارع وليه مقامه وجعل تسليم النفس اليه كتسليمها إلى المقتول بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه فانه يقوم مقام تسليمه للموروث والتحقيق في المسألة ان القتل يتعلق به ثلاثة حقوق حق لله وحق للمظلوم المقتول وحق للولى فاذا سلم القاتل نفسه طوعا واختياراً الى الولى ندما على مافعل وخوفا من الله وتوبة نصوحا يسقط حق الله بالتوبة وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح أو العفو وبقى حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا وأما مسألة المال فقد اختلف فيها فقالت طائفة إذا أدي ماعليه من المال الى الوارث فقد برئ من عهدته في الآخرة كما برئ منها في الدنيا وقالت طائفة بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة وهو لم يستدرك ظلامته باخذ وارثه له فانه منعه من انتفاعه به في طول حياته ومات ولم ينتفع به فهذا ظلم لم يستدركه وأنما ينتفع به غيره بادراكه وبنوا هذا على انه لو انتقل من واحد إلى واحد وتعدد الورثة كانت المطالبة للجميع لانه حق كان يجب عليه دفعه الى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين فقال إن تمكن الموروث من أخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذه حتى مات صارت المطالبة به للوارث في الآخرة كما هي له كذلك في الدنيا وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه بل حال بينه وبينه ظلماً وعدوانا فالطلب له في الآخرة وهذا التفصيل من أحسن مايقال فان المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر أخذه منه صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل وداره التي أحرقها غيره وطعامه وشرابه الذى أكله وشربه غيره ومثل هذا إنما تلف على الموروث لاعلى الوارث فحق المطالبة لمن تلف على ملكه فينبغى أن يقال فاذا كان المال عقاراً أو أرضاً أو أعيانا قائمة باقية بعد الموت فهى ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها اليه كل وقت وإذا لم تدفع اليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى كما يستحق المطالبة بها في الدنيا وهذا سؤال قوى لامخلص منه إلا بان يقال المطالبة لهما جميعا كما لو غصب مالا مشتركا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقه منه وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فابطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم

Marfat.com

ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض والله أعلم

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هـذه المفسدة قال الله تعالى من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس أوفساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحياالناس جميعا وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس وقالوا معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم إثماً عند الله من إثم قاتل نفس واحدة وإنما أتوا من ظنهم أن التشبيه في مقدار الاثم والعقوبة والقول لم يدل على هذا ولايلزم من تشبيه الشئ بالشيء أخذه بجميع أحكامه وقد قال تعالى كانهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاعشية أوضحاها وقال تعالى كانهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلاساعة من نهار وذلك لايوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله أي مع العشاء كما جاء في لفظ آخر وأصرح من هذا قوله من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر وقوله صلى الله عليه وسلم من قرأ قل هوالله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الاشياء لم يبلغ ثواب المشبه به فيكون قدرها سواء ولوكان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلى الفجر والعشاء في جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب وما أوتي أحد بعد الايمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فان قيل ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وبين قاتل الناس جميعا قيل في وجوه متعددة أحدها أن كل واحد منهما عاص لله ورسوله صلى الله عليه وسلم مخالف لامره متعرض لعقوبته وكل منهما قد باء بغضب من الله ولعنته واستحقاق الخلود في نار جهنم وأعدلهم عذابا عظيما وإن تفاوتت درجات العذاب فليس إثم من قتل نبياً أو إماما عادلا أوعالماً يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لامزية له من آحاد الناس الثاني أنهما سواء فى استحقاق ازهاق النفس الثالث أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام فان من قتل نفساً بغير استحقاق بل لمجرد الفساد في الارض ولأخذ ماله فانه يجترى على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله فهومعاد للنوع الانساني ومنها أنه يسمي قاتلا أوفاسقاً أوظالماً أوعاصياً بقتله واحدا كما يسمي كذلك بقتله الناس جميعا ومنها أن الله سبحانه جعل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعي له

سائر الجسد بالحمى والسهم فاذا أتلف القاتل عضوا من ذلك الجسد فكانما أتلف سائر الجسد وآلم جميع أعضائه فمن آذي مؤمناً واحدا فقد آذى جميع المؤمنين وفي أذي جميع المؤمنين أذى جميع الناس كلهم فان الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم فايذاء الحفير ايذاء المحفر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لاتقتل النفس ظلماً بغير حق ألا كان على ابن آدم الاول كفل منها لانه أول من سن القتل ولم يجئ هذا الوعيد في أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل لانه أول من سن الشرك ولهذا راي النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن لحى الخزاعي يعذب أعظم العذاب في النار لانه أول من غير دين ابراهيم عليه السلام وقد قال تعالى ولا تكونوا اول كافر به أي فيقتدي بكم من بعدكم فيكون اثم كفره عليكم وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها وفي جامع الترمذي عن إبن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يجئ المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده واوداجه تشخب دماً يقول يارب سل هذا فيما قتاني فذكروا لابن عباس التوبة فتلى هذه الآية ومن يقتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ثم قال مانسخت هذه الآية ولا بدلت واني له التوبة قال الترمذي هذا حديث حسن وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال أول ماينتن من الانسان بطنه فمن استطاع منكم أن لا يأكل الا طيباً فليفعل ومن استطاع أن لايحول بينه وبين الجنة ملأ كف من دم أهرقه فليفعل وفي جامع الترمذي عن نافع قال نظر عبد الله بن عمر يوماً الى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك قال الترمذي هذا حديث حسن وفي صحيح البخاري أيضاً عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دما حراماً وذكر البخاري أيضاً عن ابن عمر قال من ورطات الامور التي لامخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وفيهما أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض وفى صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها يوجد مسيرة أربعين عاماً هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان معاهدا في عهده وأمانه فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتي ماتت جوعا وعطشاً فرآها النبي صلى الله عليه وسلم في النار والهرة تخد شهافي وجهها وصدرها فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتي مات بغير جرم وفي بعض السنن عنه صلى الله عليه وسلم لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق

Marfat.com

فصل

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لصلحة نظام العالم في حفظ الانساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقى مايوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه وفي ذلك خراب العالم كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم في سننه كما تقدم قال الامام أحمد ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزناء وقد أكد سبحانه حرمته بقوله والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون الآية فقرن الزناء بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد وجب ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح وقد قال تعالى ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا فاخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذى قد تناهاقبحه حتي استقر فحشه في العقول حتي عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الاودي قال رأيت في الجاهلية قردا زنا بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجموها حتي ماتا ثم أخبر عن غايته بانه ساء سبيلا فانه سبيل هلكة وبوار وافتقار فى الدنيا وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال ولما كان نكاح ازواج الآباء من اقبحه خصه بمزيد ذم فقال أنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له الى الفلاح بدونه فقال قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى قوله فمن ابتغى وراء ذلك فاؤلئك هم العادون وهذا يتضمن ثلاثة أمور من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين وانه من الملومين ومن العادين ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع فى اللوم فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك ونظير هذا أنه ذم الانسان وأنه خلق هلوعا لايصبر على شر ولا خير بل إذا مسه الخير منع وبخل وإذا مسه الشر جزع الا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكر منهم الذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أوماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون وأمر الله تعالى نبيه ان يامر المؤمنين بغض ابصارهم وحفظ فروجهم وان يعلمهم انه مشاهد لاعمالهم مطلع عليها يعلم خائنة الأعين ومانخفي الصدور ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الامر بغضه مقدما على حفظ الفرج فان الحوادث مبدأها من النظر كما أن معظم النار مبدأها من مستصغر الشرر ثم تكون نظرة ثم تكون خطرة ثم خطوة ثم خطيئة ولهذا قيل من حفظ هذه الاربعة أحرز دينه اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات فينبغي للعبد أن يكون

Marfat.com

بواب نفسه على هـذه الابواب الاربعة ويلازم الرباط على ثغورها فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ويتبرماعلواتتبيرا

فصل

وأكثر ماتدخل المعاصي على العبد من هذه الابواب الاربعة فنذكر في كل واحد منها فصلا يليق به فاما اللحظات فهى رائد الشهوة ورسولها وحفظها أصل حفظ الفرج فمن أطلق نظره أورده موارد الهلاك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ياعلى لاتتبع النظرة النظرة فانما لك الاولى وليست لك الثانية وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره عن محاسن امرأة أوأمرد لله أورث الله فى قلبه حلاوة العبادة الى يوم القيامة هذا معنى الحديث وقال غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وقال إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يارسول الله مجالسنا مالنابد منها قال فان كنتم لابد فاعلين فاعطوا الطريق حقه قالوا وما حقه قال غض البصر وكف الاذي ورد السلام والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الانسان فان النظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولابد مالم يمنع منه مانع وفي هذا قيل الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم مابعده ولهذا قال الشاعر

كل الحوادث مبداها من النظر * ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت في قلب صاحبها * كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد مادام ذا طرف يقلبه * في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ماضر مهجته * لامرحبا بسرور عاد بالضرر

ومن آفاته أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات فيري العبد ماليس قادراً عليه ولاصابرا عنه وهذا من أعظم العذاب أن ترى مالاصبر لك عنه ولاعن بعضه ولاقدرة لك عليه قال الشاعر

وكنت متي أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذى لاكله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا البيت يحتاج الى شرح ومراده أنك تري مالا تصبر عن شيء منه ولاتقدر عليه فان قوله لاكله أنت قادر عليه نفى لقدرته على الكل الذى لاينتفي إلابنفي القدرة عن كل واحد واحد وكم من مرسل لحظاته فأقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلا كما قيل

ياناظراً ماأقلعت لحظاته * حتى تشحط بينهن قتيلا

ولى من أبيات

مل السلامة فاغتدت لحظاته * وقفا على طلل يظن جميلا

مازال يتبع أثره لحظاته * حتى تشحط بينهن قتيلا

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل الى المنظور اليه حتى يتبوء مكانا من قلب الناظر

ولى من قصيدة

ياراميا بسهام اللحظ مجتهدا * أنت القتيل بما ترمي فلا تصب

وباعث الطرف يرتاد الشفاء له * أحبس رسولك لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك أن النظرة تجرح القلب جرحا فيتبعها جرح على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعا تكرارها ولى أيضاً في هذا المعنى

مازلت تتبع نظرة في نظرة * في أثر كل مليحة ومليح

وتظن ذاك دواء جرحك وهو في الـ * ـتحقيق تجريح على تجريح

فذبحت طرفك باللحاظ وبالبكا * فالقلب منك ذبيح أي ذبيح

وقد قيل إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات

فصل

وأما الخطرات فشأنها أصعب فانها مبدأ الخير والشر ومنها تتولد الارادات والهمم والعزائم فمن راعي خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب ومن استهان بالخطرات قادته قهراً إلى الهلكات ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير مني باطلة كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وأحسن الناس همة وأوضعهم نفساً من رضى من الحقائق بالاماني الكاذبة واستجلبها لنفسه وتحلى بها وهي لعمر الله رؤس من أموال المفلسين ومتاجر الباطلين وهي قوة النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ومن الحقائق بكواذب الآمال كما قال الشاعر

أماني من سعد رواء على الظما   سقتنا بها سعداً على ظمأ بردا

مني إن تكن حقاً تكن أحسن المني   والا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وهي أضر شئ على الانسان وتتولد من العجز والكسل وتولد التفريط والاضاعة والحسرة والندامة والمتمني لما فاته مباشرة الحقيقة يحسبه تحت صورتها في قلبه وعانقها وضمها اليه فقنع بوصال صورة وهمية خالية صورها فكره وذلك لا يجدي عليه شيئاً وانما مثله مثل

Marfat.com

الجائع والظمآن يصور في وهمه صورة الطعام والشراب وهو يأكل ويشرب والسكون به الى ذلك واستجلا به يدل على خساسة النفس ووضاعتها وانما شرف النفس وزكاتها وطهارتها وعلوها بأن تنفى عنها كل خطرة لا حقيقة لها ولا ترضى أن يخطرها بباله ويأنف لنفسه منها ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه وخطرات يستدفع بها مضار دنياه وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته وخطرات يستدفع بها مضار آخرته فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الاقسام الاربعة فاذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره واذا تزاحمت عليه الخطرات كتزاحم متعلقاتها قدم الاهم فالاهم الذي يخشى فوته وأخر الذي ليس باهم ولا يخاف فوته بقى قسمان آخران أحدهما مهم لايفوت والثاني غير مهم ولكنه يفوت ففي كل منهما يدعو الى تقديمه فهنا يقع التردد والحيرة فيه فان قدم الاهم خشى فوات مادونه وان قدم مادونه فاته الاشتغال به عن المهم وذلك بأن يعرض له أمران لايمكن الجمع بينهما ولا يحصل أحدهما الا بتفويت الآخر فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ومن ههنا ارتفع من ارتفع وأنجح من أنجح وخاب من خاب فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذي لايفوت على المهم الذي يفوت ولا تجد أحداً يسلم من ذلك ولكن مستقل ومستكثر والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرى التي يكون عليها مدار الشرع والقدر واليها يرجع الخلق والامر وهي إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما وإن فاتت المصلحة التي هي دونها والدخول في أدنى المفسدتين لدفع ماهو أكبر منهما فتفوت مصلحة لتحصيل ماهو أكبر منهما ويرتكب مفسدة لدفع ماهو أعظم منها فخطرات العاقل وفكره لايتجاوز ذلك وبذلك جاءت الشرائع ومصالح الدنيا والآخرة لاتقوم الا على ذلك وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة فما كان لله فهو أنواع (الاول) الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها وفهمها وفهم مراده منها ولذلك أنزلها الله تعالى الا لمجرد تلاوتها بل التلاوة وسيلة قال بعض السلف أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا (الثاني) الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته واحسانه وبره وجوده وقد حث الله سبحانه عباده على التفكر في آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك (الثالث) الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه باصناف النعم وسعة مغفرته ورحمته وحلمه وهذه الانواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة (الرابع) الفكرة في عيوب النفس وآفاتها وفي عيوب العمل وهذه الفكرة عظيمة النفع وهذا باب

Marfat.com

لكل خير وتأثيرها في كسر النفس الامارة بالسوء ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت وصار الحكم لها فحي القلب ودارت كلمته في مملكته وبث أمراءه وجنوده في مصالحه (الخامس) الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه فالعارف ابن وقته فان أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها فجميع المصالح انما تنشأ من الوقت فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبداً قال الشافعي رضى الله عنه صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين أحدهما قولهم الوقت سيف فان لم تقطعه قطعك وذكر الكلمة الاخرى ونفسك إن أشغلتها بالحق والا اشغلتك بالباطل فوقت الانسان هو عمره في الحقيقة وهو مادة حياة الابدية في النعيم المقيم ومادة المعيشة الضنك في العذاب الاليم وهو يمر أسرع من مر السحاب فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وان عاش فيه عيش البهائم فاذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والاماني الباطلة وكان خير ماقطعه بالنوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته واذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له من صلاته الا ماعقل منها فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله وما عدا هذه الاقسام من الخطرات والفكر فاما وساوس شيطانية وإما أماني باطلة وخدع كاذبة بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق

إن كان منزلتي في الحب عندكم * ماقد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمنا * واليوم احسبها أضغاث أحلام

وأعلم ان ورود الخاطر لايضر وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته فالخاطر كالمار على الطريق فان لم تستدعه وتتركه مر وانصرف عنك وان استدعيته سحرك بحديثه وخدعه وغروره وهو أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة وقد ركب الله سبحانه في الانسان نفسين نفساً أمارة ونفسا مطمئنة وهما متعاديتان فكلما خف على هذه ثقل على هذه وكلما التذت به هذه تألمت به الاخرى فليس على النفس الامارة أشق من العمل لله وايثار رضاه على هواها وليس لها أنفع منه وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وأجابة داعي الهوي وليس عليها شيء أضر منه والملك مع هذه عن يمين القلب والشيطان مع تلك عن ميسرة القلب والحروب مستمرة لاتضع أوزارها الا أن تستوفي أجلها من الدنيا والباطل كله يتحيز مع الشيطان والامارة والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة والحرب دول وسجال والنصر مع الصبر ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العافية في الدنيا والآخرة وقد حكم الله تعالى حكما لايبدل أبداً أن

Marfat.com

العاقبة للتقوي والعاقبة للمتقين فالقلب لوح فارغ والخواطر نقوش تنقش فيه فكيف يليق بالعاقل أن يكون نقوش لوحه مابين كذب وغرور وخدع وأماني باطلة وسراب لاحقيقة له فأي حكمة وعلم وهدي ينتقش مع هذه النقوش وإذا أراد أن ينقش ذلك فى لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع فى محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه فان لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم يستقر فيه الخواطر النافعة فانها لاتستقر إلا في محل فارغ كما قيل

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوي فصادف قلباً خاليا فتمكنا

ولهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر وان لايمكنوا خاطراً يدخل قلوبهم حتي تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء فانهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر فبقيت فارغة لاشئ فيها فصادفها الشيطان خالية فبذر فيها الباطل في قوالب وهمهم أنها أعلى الاشياء وأشرفها وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدي وإذا خلى القلب عن هذه الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خاليا فشغله بما ينا سب حال صاحبه حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فكيف بالعلوية فشغله بارادة التجريد والفراغ من الارادة التى لاصلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هي المستولية على قلبه وهي إرادة مراد الله الديني الامري الذى يحبه ويرضاه وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به والقيام به وتنفيذه في الخلق والتطرق الى ذلك والتوصل اليه بالدخول في الخلق لتنفيذه فيرطلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم الى تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا واسبابها واوهمهم أن كمالهم فى ذلك التجريد والفراغ وهيهات هيهات إنما الكمال فى اجلاء القلب والسر من الخواطر والارادات والفكر في تحصيل مراضى الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر في طرق ذلك التوصل اليه فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لذلك كما إن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت والله المستعان وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر في مرضات الرب تعالى فربما استعملها في صلاته فكان يجهز جيشه وهو في صلاته فيكون قد جمع بين الصلاة والجهاد وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة وهو من باب عزيز شريف لايدخل منه الا صادق حاذق الطلب متضلع من العلم عالي الهمة بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتي وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

فصل

وأما اللفظات فحفظها بأن لايخرج لفظة ضائعة بل لايتكلم الا فيما يرجو فيه الربح والزيادة

Marfat.com

فى دينه فاذا أرادان يتكلم بالكلمة نظرهل فيها ربح أوفائدة أم لافان لم يكن فيها ربح أمسك عنها وإن كان فيها ربح نظر هل تفوته بها كلمة هي أربح منها فلا يضيعها بهذه وإذا أردت أن تستدل على مافي القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان فانه يطلعك على مافي القلب شاء صاحبه أم أبي قال يحيي بن معاذ القلب كالقدور تغلى بما فيها والسنتها مغارفها فانظر الرجل حين يتكلم فان لسانه يغترف لك بهمما فى قلبه حلو وحامض وعذب وأجاج وغيرذلك ويبين لك طعم قلبه إغتراف لسانه أي كما تطعم بلسانك طعم مافي القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته كذلك تطعم مافي قلب الرجل من لسانه فتذوق مافي قلبه من لسانه كما تذوق مافي القدر بلسانك وفي حديث أنس المرفوع لايستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتي يستقيم لسانه وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكثر مايدخل الناس النار فقال الفم والفرج قال الترمذى حديث حسن صحيح وقد سأل معاذ النبي صلى الله عليه وسلم عن العمل الذى يدخله الجنة ويباعده من النار فاخبره صلى الله عليه وسلم برأسه وعموده وذروة سنامه ثم قال ألاأخبركم بملاك ذلك كله قال بلى يارسول الله فأخذ بلسان نفسه ثم قال كف عليك هذا فقال وإنا لمواخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم اوعلى مناخرهم الاحصائد السنتهم قال الترمذى حديث حسن صحيح ومن العجب أن الانسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه حتى يري الرجل يشار اليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لايلقى لها بال يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب وكم تري من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه تغري في أعراض الاحياء والاموات ولايبالى مايقول وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر الى مارواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم قال رجل والله لايغفر الله لفلان فقال الله عزوجل من ذا الذي يتالى على إني لا أغفر لفلان قد غفرت له وأحبطت عملك فهذا العابد الذي قد عبد الله ماشاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك ثم قال أبوهريرة تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لايلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لايلقى لها بالا يهوي بها في نارجهنم وعند مسلم ان العبد ليتكلم بالكلمة مايتبين مافيها يهوي بها في النار أبعد مما بين المغرب والمشرق وعند الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث بلال بن الحارث المزنى إن أحدكم

ليتكلم بالكلمة من رضوان الله مايظن أن تبلغ مابلغت فيكتب الله له بها رضوانه الى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله مايظن أن تبلغ مابلغت فيكتب الله له بها سخطه الى يوم يلقاه فكان علقمة يقول كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث وفي جامع الترمذي أيضاً من حديث أنس قال توفي رجل من الصحابة فقال رجل أبشر بالجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لاتدري لعله تكلم فيما لايعنيه أو بخل بمالاينقصه قال حديث حسن وفي لفظ أن غلاما استشهد يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت هنيئاً لك يابني الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايدريك لعله كان يتكلم فيما لايعنيه ويمنع مالايضره وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أوليصمت وفي لفظ لمسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فاذا شهد أمرا فليتكلم بخير أو ليسكت وذكر الترمذي باسناد صحيح عنه صلى الله عليه لاسلم من حسن اسلام المرأتركه مالايعنيه وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يارسول الله قل لى في الاسلام قولا لاأسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت يارسول الله ماأخوف ماتخاف علي فاخذ بلسان نفسه ثم قال هذا والحديث صحيح وعن أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا أمر بمعروف أونهى عن منكر أوذكر الله عزوجل قال الترمذى حديث حسن وفي حديث آخر إذا أصبح العبد فان الاعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فانما نحن بك فاذا استقمت استقمنا وإن أعوججت أوعوججنا وقد كان بعض السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله يوم حار ويوم بارد ولقد روى بعض الاكابر من أهل العلم في النوم بعد موته فسئل عن حاله فقال أنا موقوف على كلمة قلتها قلت ما احوج الناس الى غيث فقيل لى وما يدريك أنا أعلم بمصلحة عبادي وقال بعض الصحابة لخادمه يوما هات لى السفرة نعبث بها ثم قال استغفر الله ماأتكلم بكلمة الا وأنا أخطمها وأزمها الاهذه الكلمة خرجت بي بغير خطام ولا زمام أو كما قال والسير حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد وأختلف السلف والخلف هل يكتب جميع مايلفظ به أوالخير والشر فقط على قولين اظهرهما الاول وقال بعض السلف كل كلام بن آدم عليه لاله إلا ما كان من ذكر الله وما والاه وكان الصديق رضى الله عنه يمسك بلسانه ويقول هذا أوردني الموارد والكلام أسيرك فاذا خرج من فيك صرت أسيره والله عند لسان كل قائل وما يلفظ من قول الالديه رقيب عتيد وفي اللسان آفتان عظيمتان إن خلص العبد من احداهما لم يخلص من الآخرة آفة الكلام وآفة السكوت وقد

Marfat.com

يكون كل منهما أعظم إثما من الاخري في وقتها فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاص لله مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل واطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة فلا يري أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلا أن تضره في آخرته وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ويأتي بسيئات امثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله عز وجل وما اتصل به

فصل

واما الخطوات فحفظها بأن لاينقل قدمه إلا فيما يرجوا ثوابه عند الله تعالى فان لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خيرله ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة يتقرب بها وينويها لله فيقع خطاه قربة وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات ولما كانت العثرة عثرتين عثرة الرجل وعثرة اللسان جاءت احدهما قرينة الاخري في قوله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

فصل

وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج وقد قال صلى الله عليه وسلم أكثر مايدخل الناس النار الفم والفرج وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم لايحل دم امرء مسلم الا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة وهذا الحديث في اقتران الزنا بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي فى الفرقان ونظير حديث ابن مسعود بدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاكثر وقوعا ثم بالذى يليه فالزنا أكثر وقوعا من قتل النفس وقتل النفس أكثر وقوعا من الردة نعوذ بالله منها وأيضا فانه انتقال من الاكبر الى ماهو أكبر منه مفسدة ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم فان المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رؤسهم بين الناس وإن حملت من الزنا فان قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل وإن حملته الزوج أدخلت على أهلها وأهله أجنبيا ليس منهم فورثهم وليس منهم ورآهم وخلابهم وانتسب اليهم وليس منهم إلى غير ذلك من مفاسد زناها وأما زنا الرجل فانه يوجد اختلاط الأنساب أيضا وإفساد

Marfat.com

المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين وان عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة فكم في الزنا من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم ومن خاصيته أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس ومن خاصيته أيضاً أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته ويجلب الهم والحزن والخوف ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت وقال سعيد بن عبادة رضي الله عنه لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعجبون من غيرة سعد والله لانا أغير منه والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن متفق عليه وفي الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتي العبد ماحرم عليه وفى الصحيحين عنه صلي الله عليه وسلم لاأحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاأحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك أثني على نفسه وفي الصحيحين في خطبته صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف أنه قال ياأمة محمد والله إنه لاأحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزني أمته ياأمة محمد والله لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ثم رفع يديه فقال اللهم هل بلغت وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله وظهور الزنا من أمارات خراب العالم وهو من أشراط الساعة كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال لاحدثكم حديثا لايحدثكموه أحد بعدي سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم يقول من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويقل الرجال وتكثر النساء حتي يكون لخمسين امرأة القيم الواحد وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه فلابد أن يؤثر غضبه في الارض عقوبة قال عبد الله بن مسعود ماظهر الربا والزنا في قرية الا أذن الله باهلا كها ورأي بعض أحبار بنى إسرائيل إبناله يغامز امرأة فقال مهلا يابني فصرع الاب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت إمرأته وقيل له هكذا غضبك لى لايكون في جنسك خير ابدا وخص سبحانه حد الزنا من بين سائر الحدود بثلاث خصائص أحدها القتل فيه بأشنع القتلات وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة الثاني أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة

Marfat.com

الحد عليهم فانه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم منكم بهم ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره وهذا وإن كان عاما في سائر الحدود ولكن ذكر في حد الزنا خاصة لشدة الحاجة الى ذكره فان الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم والوقائع والواقع شاهد بذلك فهو ان تاخذهم هذه الرافة ونحماهم على تعطيل حد الله عز وجل وسبب هذه الرحمة ان هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل وفي النفوس أقوى الدواعي إليه والمشارك فيه كثير وأكثر أسبابه العشق والقلوب مجبولة على رحمة العاشق وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليها ولا يستنكر هذا الامر فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الانعام ولقد حكى لنا من ذلك شيء كثير أكثره عن ناقصي العقول والأديان كالخدم والنساء وأيضا فان هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانبين فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه وفيها شهوة غالبة له فتصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد وهذا كله من ضعف الايمان وكمال الايمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود فيكون موافقا لربه سبحانه في أمره ورحمته * الثالث أنه سبحانه أمر أن يكون حدها بمشهد من المؤمنين فلا يكون في خلوة حيث لا يراها أحد وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة وذلك لاشتراك الزنا واللواط في الفحش وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره فان في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتي فانه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً ويذهب خيره كله وتمص الارض ماء الحياء من وجهه فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن وقد اختلف الناس هل يدخل الجنة مفعول به على قولين سمعت شيخ الاسلام رحمه الله يحكيهما والذين قالوا لا يدخل الجنة احتجوا بأمور منها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة ولد زنا فاذا كان هذا حال ولد الزنا مع انه لا ذنب له في ذلك ولكنه مظنة كل شر وخبث وهو جدير ان لا يجيء منه خير أبداً لانه مخلوق من نطفة خبيثة واذا كان الجسد الذي تربى على الحرام النار أولى به فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام قالوا والمفعول به شر من ولد الزنا وأخزى وأخبث وأوسخ وهو جدير أن لا يوفق لخير وأن يحال بينه وبينه وكلما عمل خيراً قيض الله له ما يفسده

Marfat.com

عقوبة له وقل أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان ولا يوفق لعمل صالح ولا لعلم نافع ولا توبة نصوحا والتحقيق فى هذه المسألة أن يقال إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب ورزق توبة نصوحا وعملا صالحاً وكان فى كبره خيراً منه فى صغره وبدل سيئآته بحسنات وغسل عار ذلك عنه بانواع الطاعات والقربات وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات وصدق الله فى معاملته فهذا مغفور له وهو من أهل الجنة فان الله يغفر الذنوب جميعا واذا كانت التوبة تمحو كل ذنب حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك فلا تقصر عن محو هذا الذنب وقد استقرت حكمة الله به عدلا وفضلا أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنا أنه يبدل سيئاته حسنات وهذا حكم عام لكل تائب من ذنب وقد قال تعالى قل ياعبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ولكن هذا فى حق التائبين خاصة وأما مفعول به كان فى كبره شرا مما كان في صغره لم يوفق لتوبة نصوحا ولا لعمل صالح ولا استدرك مافات ولا أحيى مامات ولا بدل السيئات بالحسنات فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنه عقوبة له على عمله فان الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخري وتتضاعف عقوبة السيئآت بعضها ببعض كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى فتضاعف الحسنات واذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة عقوبة لهم على أعمال السيئة قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي رحمه الله واعلم أن لسوء الخاتمة أعاذنا الله منها أسباب ولها طرق وأبواب أعظمها الانكباب على الدنيا وطلبها والحرص عليها والاعراض عن الأخرى والاقدام والجرأة على معاصي الله عزوجل وربما غلب على الانسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية وجانب من الاعراض ونصيب من الجرأة والاقدام فملك قلبه وسبي عقله وأطفأ نوره وأرسل عليه حجبه فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجعت فيه موعظة فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبين له المراد ولا علم ما أراد وان كرر عليه الداعي وأعاد قال ويروي أن بعض رجال الناصر نزل به الموت فجعل ابنه يقول له قل لاإله إلا الله فقال الناصر مولاي فأعاد عليه القول فقال مثل ذلك ثم أصابته غشية فلما أفاق قال الناصر مولاي وكان هذا دأبه كلما قيل له قل لاإله الا الله قال الناصر مولاي ثم قال لابنه يافلان الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل ثم مات على ذلك قال عبد الحق رحمه الله وقيل لآخر ممن أعرفه قل لاإله إلا الله فجعل يقول ألدار الفلانية أصلحوا فيها كذا والبستان

الفلاني افعلوا فيه كذا قال وفيما أذن لي أبو طاهر السلمي أن أحدث به عنه أن رجلا نزل به الموت فقيل له قل لاإله إلا الله فجعل يقول بالفارسية ده يازده تفسيره عشرة باحدى عشر وقيل لآخر قل لاإله إلا الله فجعل يقول * أين الطريق الى حمام منجاب * قال وهذا الكلام له قصة وذلك أن رجلا كان واقفاً بازاء داره وكان بابها يشبه باب هذا الحمام فمرت به جارية لها منظر فقالت أين الطريق الى حمام منجاب فقال هذا حمام منجاب فدخلت الدار ودخل وراءها فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه وقالت خدعة منها له وتحيلا لتتخلص مما أوقعها فيه وخوفاً من فعل الفاحشة يصلح أن يكون معنا مايطيب به عيشنا وتقر به عيوننا فقال لها الساعة آتيك بكل ماتريدين وتشتهين وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها فاخذ مايصلح ورجع فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تخنه في شيء فهام الرجل وأكثر الذكر لها وجعل يمشي في الطرق والازقة ويقول

يارب قائلة يوماً وقد تعبت * أين الطريق الى حمام منجاب

فبينا يقول ذلك واذا بجاريته أجابته من طاق قرنان

هل لا جعلت سريعاً إذ ظفرت بها * حرزاً على الدار أو قفلا على الباب

فازداد هيمانه واشتد هيجانه ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا قال ويري أن رجلا عشق شخصاً فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه حتى وقع ألماً به ولزم الفراش بسببه وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده أن يعوده فاخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلى غمه وجعل ينتظر للميعاد الذي ضربه له فبينا هو كذلك اذ جاءه الساعي بينهما فقال انه وصل معى الى بعض الطريق ورجع فرغبت اليه وكلمته فقال انه ذكرني وبرح بي ولا أدخل مداخل الريب ولا أعرض نفسي لمواقع ألتهم فعاودته فأبى وانصرف فلما سمع البائس ذلك أسقط في يده وعاد الى أشد مما كان به وبدت عليه علائم الموت فجعل يقول في تلك الحال

أسلم ياراحة العليل * وياشفاء المدنف النحيل

رضاك أشهى الى فؤادى * من رحمة الخالق الجليل

فقلت له يافلان اتق الله قال قد كان فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتي سمعت صيحة الموت فعياذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة ولقد بكي سفيان الثوري ليلة الى الصباح فلما أصبح قيل له أكل هذا خوفاً من الذنوب فاخذ تبنة من الارض وقال الذنوب أهون من هذه وإنما أبكى خوفا من الخاتمة وهذا من أعظم الفقه ان يخاف الرجل ان تخدعه

ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى وقد ذكر الامام احمد عن أبي الدرداء أنه لما اختصر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسني قال واعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله تعالى منها لاتكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ماسمع بهذا ولاعلم به ولله الحمد وإنما تكون لمن له فساد في العقيدة أو اصرار على الكبيرة واقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه حتي نزل به الموت قبل التوبة فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم قبل الانابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله قال ويروي أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلات فيه وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة فرقى يوما المنارة على عادته للأذان وكان تحت المنارة دارا لنصراني فاطلع فيها فرأي إبنة صاحب الدار فافتتن بها فترك الأذان ونزل اليها ودخل الدار عليها فقالت له ماشأنك وماتريد قال اريدك قالت لماذا قال قد سلبت لبي وأخذت بمجامع قلبي قالت لا احيبك الى ريبة أبداً قال أتزوجك قالت أنت مسلم وأنا نصرانية وابي لايزوجني منك قال اتنصر قالت ان فعلت افعل فتنصر الرجل ليتزوجها واقام معهم في الدار فلما كان في اثناء ذلك اليوم رقى الى سطح كان في الدار فسقط منه فمات فلم يظفر بها وفاته دينه

فصل

ولما كانت مفسدة اللواط من اعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من اعظم العقوبات وقد اختلف الناس هل هو أغلظ عقوبة من الزنا او الزنا أغلظ عقوبة منه او عقوبتهما سواء على ثلاثة اقوال فذهب ابو بكر الصديق وعلى بن ابي طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وخالد بن زيد وعبد الله بن معمر والزهرى وربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك واسحق بن راهويه والامام أحمد في أصح الروايتين عنه والشافعي في احد قوليه الى ان عقوبته أغلظ من عقوبة الزنا وعقوبته القتل على كل حال محصناً كان أو غير محصن وذهب عطاء بن أبي رباح والحسن البصرى وسعيد بن المسيب وابراهيم النخعى وقتادة والاوزاعى والشافعي في ظاهر مذهبه والامام أحمد في الرواية الثانية عنه وأبو يوسف ومحمد إلى ان عقوبته وعقوبة الزانى سواء وذهب الحاكم والامام أبو حنيفة الي ان عقوبته دون عقوبة الزانى وهى التعزير قالوا لأنه معصية من المعاصى لم يقدر الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فيه حداً مقدراً فكان

فيه التعزير كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير قالوا ولأنه وطؤ في محل لاتشتهيه الطبائع بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم فلم يكن فيه حد كوطئ الحمار وغيره قالوا ولأنه لايسمى زانياً لغة ولا شرعا ولا عرفا فلا يدخل في النصوص من الدلالة على حد الزانيين قالوا ولانا رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع عنها طبعياً اكتفى بذلك الوازع عن الحد واذا كان في الطبائع تقاضيها جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطبائع لها ولهذا جعل الحد في الزنا والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير قالوا وطرد هذا انه لاحد في وطئ البهيمة ولا الميتة وقد جبل الله تعالى الطبائع على النفرة من وطئ الرجل الرجل أشد نفرة كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف الزنا فان الداعى فيه من الجانبين قالوا ولأن أحد النوعين اذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد كما لو تساحقت المرأتان واستمتعت كل واحدة منهما بالاخرى قال أصحاب القول الأول وهم جمهور الأمة وحكاه غير واحد إجماعا للصحابة ليس في المعاصى مفسدة أعظم من مفسدة اللواط وهى تلى مفسدة الكفر وربما كانت أعظم من مفسدة القتل كما سنبينه ان شاء الله تعالى قالوا ولم يبتلي الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها امة غيرهم وجمع عليهم أنواعا من العقوبات من الاهلاك وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء وطمس أعينهم وعذبهم وجعل عذابهم مستمراً فنكل بهم نكالا لم ينكله بامة سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها وتهرب الملائكة الى أقطار السموات والأرض اذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم وتعج الأرض الى ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن أماكنها وقتل المفعول به خير له من وطئه فانه اذا وطأه الرجل قتله قتلا لارجي الحياة معه بخلاف قتله فانه مظلوم شهيد وربما ينتفع به في آخرته قالوا والدليل على هذا أن الله سبحانه جعل حد القاتل الى خيرة الولي إن شاء قتل وإن شاء عفى وحتم قتل اللوطي حداً كما أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة الصريحة التي لامعارض لها بل عليها عمل اصحابه وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلا ينكح كما تنكح المرأة فكتب الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضي الله عنهم فكان على بن أبي طالب أشدهم قولا فيه فقال مافعل هذا الا أمة من الأمم واحدة وقد علمتم مافعل الله بها أرى أن يحرق بالنار فكتب أبو بكر الى خالد فحرقه وقال عبد الله بن عباس ان ينظر أعلا مافي القرية

فيرمى اللوطى منها منكساً ثم يتبع بالحجارة وأخذ ابن عباس هذا الحد من عقوبة الله للوطية قوم لوط وابن عباس هو الذى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره واحتج الامام أحمد بهذا الحديث واسناده على شرط البخارى قالوا وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط ولم يجئ عنه لعنة الزانى ثلاث مرات في حديث واحد وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة وكرر لعن اللوطية فاكده ثلاث مرات وأطبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتله لم يختلف منهم فيه رجلان وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله فظن بعض الناس ان ذلك اختلاف منهم فى قتله فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة وهي بينهم مسألة نزاع قلوا ومن تأمل قوله سبحانه ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا وقوله فى اللواط أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين تبين له تفاوت مابينهما فانه سبحانه نكر الفاحشة في الزنا أي هو فاحشة من الفواحش وعرفها في اللواط وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة كما تقول زيد الرجل ونعم الرجل زيد أي تأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لاينصرف الاسم الى غيرها وهذا نظير قول فرعون لموسى وفعلت فعلتك التي فعلت أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد ثم أكد سبحانه شأن فحشها بانها لم يعملها احد من العالمين قبلهم فقال ماسبقكم بها من احد من العالمين ثم زاد فى التأكيد بان صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو اعنها الاسماع وتنفر منه أشد النفور وهو إتيان الرجل رجلا مثله ينكحه كما ينكح الأنثي فقال أئنكم لتأتون الرجال ثم نبه على استغنائهم عن ذلك وان الحامل لهم عليه ليس الامجرد الشهوة لا الحاجة التي لاجلها مال الذكر الى الانثي من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة التي تنسي المرأة لها أبوها وتذكر بعلها وحصول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة وقضاء الوطر وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب وقيام الرجال على النساء وخروج أحب الخلق الى الله من جماعهن كالانبياء والاولياء والمؤمنين ومكاثرة النبي صلي الله عليه وسلم الانبياء بامته الى غير ذلك من مصالح النكاح والمفسدة التى في اللواط لقاوم ذلك كله وربي عليه بما لايمكن حصره وفساده ولايعلم تفصيله الا الله عز وجل ثم أكد سبحانه قبح ذلك بان اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور وهي شهوة النساء دون الذكور فقلبوا الامر وعكسوا الفطرة والطبيعة فاتوا الرجال شهوة من

دون النساء ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها وكذلك قلبوهم ونكسوا في العذاب على رؤسهم ثم أكد سبحانه قبح ذلك بان حكم عليهم بالاسراف وهو مجاوزة الحد فقال بل أنتم قوم مسرفون فتأمل هل جاء مثل ذلك أوقريبا منه في الزنا وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وسماهم مفسدين في قول نبيهم فقال رب انصرني على القوم المفسدين وسماهم ظالمين في قول الملائكة لابراهيم عليه السلام إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه الذمات ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه باهلاكهم فقيل له ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاؤا نبيهم لوطاً لما سمعوا بانه قد طرقه أضياف هم من أحسن البشر صورا فأقبل اللوطية اليهم يهرعون فلما رآهم قال لهم ياقوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فقدا أضيافه ببناته يزوجهم بهن خوفا على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد فقال ياقوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد فردوا عليه ولكن رد جبار عنيد لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد فنفث نبي الله نفثة مصدور وخرجت من قلب مكروب عميد فقال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال وأعلموه إنه ممن ليس يوصل اليهم ولا اليه بسببهم فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم وهون عليك فقالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك ومبشروه بما جاؤابه من الوعدله ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ماأصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فاستبطأ نبي الله عليه السلام موعدهلاكهم وقال أريد أعجل من هذا فقالت الملائكة أليس الصبح بقريب فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه الا مابين السحر وطلوع الفجر وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير فبرز المرسوم الذي لايرد من عند الرب الجليل على يدي عبده ورسوله جبرائيل بان يقلبها عليهم كما أخبربه فى محكم التنزيل فقال عز من قائل فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ونكالا وسلفا لمن شاركهم فى أعمالهم من المجرمين وجعل ديارهم بطريق السالكين إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين

Marfat.com

أخذهم على غرة وهم نائمون وجاءهم بماسه وهم فى سكرتهم يعمهون فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون تقلبت علي تلك اللذات آلاماً فأصبحوا بها يعذبون

مآرب كانت في الحياة لأهلها * عذابا فصارت فى الممات عذابا

ذهبت اللذا ، • وأعقبت الحسرات • وانقضت الشهوات • وأورثه الشقوات • تمتعوا قليلا • وعذبوا طويلا • رتعوا مرتعا وخيما • فأعقبهم عذابا أليما • أسكرتهم خمرة تلك الشهوات فماستفاقوا منها إلا فى ديار المعذبين • وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم فى منازل الهالكين • فندموا والله أشد الندامة حين لاينفع الندم • وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم • فلو رأيت الاعلى والاسفل من هذه الطائفة والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين اطباق الجحيم • وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم • ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون • ذوقوا ما كنتم تكسبون • إصلوها فاصبروا او لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون • ولقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الامة وبين إخوانهم فى العمل فقال مخوفا لهم بأعظم الوعيد وماهي من الظالمين ببعيد

فيا ناكح الذكران تهنيكم البشرى * فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا واكثروا * فان لكم زفا الى ناره الكبرى
فاخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم * وقالوا الينا عجلوا لكم البشرى
وهانحن أسلاف لكم فى انتظاركم * سيجمعنا الجبار في ناره الكبرى
ولا تحسبوا أن الذين نكحتموا * يغيبون عنكم بل ترونهم جمرى
ويلعن كلا منهم لخليله * ويشقى به المحزون في الكرة الاخرى
يعذب كل منهم بشريكه * كما اشتركا في لذة توجب الوزرى

فصل

في الاجوبة عما إحتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنا اما قولهم إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً فجوابه من وجوه أحدها إن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتما وما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم فانما شرعه عن الله فان أردتم ان حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل وإن أردتم إنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك إنتفاء حكمه لثبوته بالسنة الثاني إن هذا ينتقض عليكم بالرجم فانه إنما ثبت بالسنة فان قلتم بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقى حكمه قلنا فينتقض عليكم بحد شارب

Marfat.com

الحمر الثالث أن نفى دليل معين لايلزم نفى مطلق الدليل ولانفى المدلول فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير مشتق وأماقولكم أنه وطء لاتشتهيه الطباع بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة فجوابه من وجوه أحدها أنه قياس فاسد الاعتبار مردود بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه الثاني أن قياس وطء الامرد الجميل الذي تربي فتنته على كل فتنة على وطء أتان أوإمرأة ميتة من أفسد القياس وهل تعدل ذلك أحد قط باتان أو بقرة أوميتةأويسى ذلك عقل عاشق أوأسر قلبه أو استولى على فكره ونفسه فليس في القياس أفسد من هذا الثالث أن هذا منتقض بوطء الام والبنت والاخت فان النفرة الطبيعية عنه كاملة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود في أحد القولين وهو القتل بكل حال محصنا كان أوغير محصن وهذه إحدي الروايتين عن الامام أحمد وهو قول إسحاق بن رهويه وجماعة من أهل الحديث وقد روى ابوداود من حديث البراء بن عازب قال لقيت عمى ومعه الراية فقلت له الى أين تريد قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وآخذ ماله قال الترمذي هذا حديث حسن قال الجوزجاني عم البراء اسمه الحارث بن عمرو في سنن أبي داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من وقع على ذات محرم فاقتلوه ورفع الى الحجاج رجلا اغتصب اخته على نفسها فقال احبسوه واسألوا من هاهنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا عبد الله بن مطرف فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من تخطي حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف وفيه دليل على القتل بالتوسيط وهذا دليل مستقل في المسألة وهو أن من لايباح وطؤه بحال فحد واطئه القتل دليله من وقع على أمه وابنته وكذلك يقال في وطء ذوات المحارم من وطء من لايباح وطؤه بحال كان حده القتل كاللوطي والتحقيق ان يستدل على المسألتين بالنص والقياس يشهد لصحة كل منهما وقد إتفق المسلمون على أن من زنا بذات محرم فعليه الحد وإنما اختلفوا في صفة الحد هل هو القتل بكل حال أو حده حد الزاني على قولين فذهب الشافعي ومالك وأحمد في إحدى روايتيه إن حده حد الزاني وذهب أحمد وإسحق وجماعة من أهل الحديث الى أن حده القتل بكل حال وكذلك إتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالماً بالتحريم أنه يحد إلا أبا حنيفة وحده فانه رأي ذلك شبهة مسقطة للحد والمنازعون يقولون اذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة فانه إرتكب محذورين عظيمين محذور العقد ومحذور الوطء فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد الى محذور الزنا وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء وهما في مذهب أحمد وغيره

أحدهما انه يجب به الحدوهو قول الاوزاني فان فعله أعظم جرما وأكثر ذنباً لانه انضم الى هتك فاحشة حرمة الميتة

﴿ فصل ﴾

وأما وطء البهيمة فللفقهاء فيه ثلثة أقوال أحدها أنه يؤدب ولاحد عليه وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قوليه وهو قول إسحق والقول الثاني أن حكمه حكم الزاني يجلد إن كان بكراً و يرجم إن كان محصنا وهذا قول الحسن والقول الثالث أن حكمه حكم اللوطي نص عليه أحمد ويخرج على الروايتين في حده هل هو القتل حتما أو هو كالزاني والذين قالوا حده القتل احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه قالوا ولانه وطء لايباح بحال فكان فيه القتل حداً للوطء ومن لم يرد عليه الحد قالوا لم يصح فيه الحديث ولو صح لقلنا به ولم يحل لنا مخالفته قال اسمعيل بن سعيد الشالنجي سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة فوقف عندها ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك أوقال الطحاوي الحديث ضعيف وأيضاً فرواية ابن عباس وقد أفتى بانه لاحد عليه قال أبو داود وهذا يضعف الحديث ولا ريب ان الزاجر الطبعي عن اتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعي عن التلوط وليس الامران في طباع الناس سواء فالحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس

﴿ فصل ﴾

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على سحاق المرأتين فمن أفسد القياس إذ لا ايلاج هناك وإنما نظير مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج على أنه قد جاء في بعض الاحاديث المرفوعة إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان ولكن لايجب الحد بذلك لعدم الايلاج وإن اطلق عليهما اسم الزنا العام كزنا العين واليد والرجل والفم وإذا ثبت هذا فاجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ومن ظن أن تلوط الانسان مع مملوكه جائز واحتج على ذلك بقوله تعالى إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد فان تاب والا قتل وضرب عنقه وتلوط الانسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الاثم والحكم

﴿ فصل ﴾

فان قيل مع هذا كله فهل من دواء لهذا الداء العضال ورقية لهذا السحر القتال وما

Marfat.com

الاحتيال لدفع هذا الخيال وهل من طريق قاصد الى التوفيق وهل يمكن السكران بخمرة الهوى أن يفيق وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل الى سويدائه وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويداه لان لامه لائم التذ بملامه لذكره لمحبوبه وان عذله عاذل أغراه عذله وسار به في طريق مطلوبه ينادي عليه شاهد حاله بلسان مقاله

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي * متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتني فأهنت نفسي جاهدا * مامن يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم * إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذيذة * حبا لذكرك فليلمني اللوم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الاول الذي وقع عليه الاستفتاء عليه والداء الذي طلب له الدواء قيل نعم الجواب من أصله وما أنزل الله سبحانه من داء الا وأنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله والكلام في دواء هذا الداء من طريقين • أحدهما جسم مادته قبل حصولها • والثاني قلعها بعد نزولها وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ومتعذر على من لم يعنه الله فان أزمة الامور بيديه وأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فامران أحدهما غض البصر كما تقدم فان النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ومن أطلق لحظاته دامت حسراته وفي غض البصر عدة منافع • احدها انه إمتثال لامر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من إمتثال أوامر ربه تبارك وتعالى وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة الا بتضييع أوامره • الثاني أنه يمنع من وصول أثر السم المسموم الذى لعل فيه هلاكه الى قلبه • الثالث أنه يورث القلب أنسا بالله وجمعية على الله فان إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر فانه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه • الرابع أنه يقوي القلب ويفرحه كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه • الخامس أنه يكسب القلب نوراً كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الامر بغض البصر فقال قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ثم قال أثر ذلك الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات اليه من كل جانب كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى وإجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة وإشتغال بأسباب الشقاوة فان ذلك انما يكشفه له النور الذي في القلب فاذ

Marfat.com

فقد ذلك النور بقي صاحبه كالاعمى الذي يجوس في حنادس الظلام • السادس أنه يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب وكان شاه بن شجاع الكرماني يقول من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخط له فراسة وكان شجاع هذا لاتخطي له فراسة والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه فاذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بان يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصره لله ويفتح له باب العلم والايمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي انما تنال ببصيرة القلب وضد هذا ماوصف الله به اللوطية من العمه الذي هو ضد البصيرة فقال تعالى لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل وعمه الذي هو فساد البصر فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل وعمه البصيرة يسكر القلب كما قال القائل

سكران سكر هوى وسكر مدامة * ومتى إفاقة من به سكران

﴿ وقال الآخر ﴾

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم * العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لايستفيق الدهر صاحبه * وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع إنه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة كما في الأثر الذي يخالف هواه يفر الشيطان من ظله وضد هذا تجده في المتبع هواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه كما قال الحسن إنهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فان المعصية لاتفارق رقابهم أبي الله إلاأن يذل من عصاه وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته والذل قرين معصيته فقال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقال تعالى ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين والايمان قول وعمل ظاهر وباطن وقال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه أي من كان يريد العزة فيطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح وفي دعاء القنوت انه لايذل من واليت ولا يعز من عاديت ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه وله من العز بحسب طاعته ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه وله من الذل بحسب معصيته الثامن أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب فانه يدخل مع النظرة وينفذ معها الى القلب أسرع من نفوذ الهوى في المكان الخالي فيمثل له صورة المنظور اليه ويزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة ويلقي عليه حطب المعاصي التي لم

يكن يتوصل اليها بدون تلك الصورة فيصير القلب في اللهب فمن ذلك اللهب تلك الانفاس التي يجد فيها وهج النار وتلك الزفرات والحرقات فان القلب قد أحاطت به النيران بكل جانب فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار وأودعت أرواحهم فيه الى حشر أجسادهم كما أراها الله نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام في الحديث المتفق على صحته التاسع انه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها فتتفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه قال تعالى لاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا واطلاق النظر يوجب هذه الامور الثلثة بحسبه العاشر أن بين العين والقلب منفذاً أو طريقا يوجب اشتغال أحدهما عن الآخر وإن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده فاذا فسد القلب فسد النظر واذا فسد النظر فسد القلب وكذلك في جانب الصلاح فاذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والاوساخ فلا يصلح لسكني معرفة الله ومحبته والانابة اليه والانس به والسرور بقربه فيه وإنما يسكن فيه اضداد ذلك فهذه اشارة الى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ماورائها

فصل

الثاني اشتغال القلب بما يصده عن ذلك ويحول بينه وبين الوقوع فيه وهو إما خوف مقلق او حب مزعج فمتى خلا القلب من خوف مافواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب أو خوف ماحصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب أومحبته ماهو أنفع له وخير له من هذا المحبوب لم يجد بداً وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب لم يجد بداً من عشق المحبور وشرح هذا ان النفس لاتترك محبوبا الا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب وهذا يحتاج صاحبه الى أمرين ان فقدا أو احد منهما لم ينتفع بنفسه أحدهما بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه فيؤثرا على المحبوبين على أدناهما ويحتمل أدنى المكروهين لتخلص من أعلاهما وهذا خاصة العقل ولا يعد عاقلا من كان بضد ذلك بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه الثاني قوة عزم وصبر يتمكن بهما من هذا الفعل والترك فكثير مايعرف الرجل قدر التفاوت ولكن يأتي له ضعف نفسه وهمته وعزيمته على إيثار الانفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ومثل هذا لاينتفع بنفسه ولا ينتفع به غيره وقد منع الله سبحانه إمامة الدين الا من أهل

Marfat.com

الصبر واليقين فقال تعالى وبقوله يهتدي المهتدون وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لماصبروا وكانوا بآياتنا يوقنون وهذا هو الذي ينتفع بعلمه وينتفع به غيره من الناس وضد ذلك لاينتفع بعلمه ولاينتفع بهغيره ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولاينتفع بهغيره فالاول يمشي في نوره ويمشي الناس في نوره والثاني قد طفى نوره فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه والثالث يمشي في نوره وحده

فصل

اذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن ان يجتمع في القلب حب المحبوب الاعلى وعشق الصور أبدا بل هما ضدان لايجتمعان بل لابد إن يخرج أحدهما صاحبه فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الاعلى الذي محبة ماسواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ماسواه وان أحبه لم يحبه الا لاجله أو لكونه وسيلة له الى محبته او قاطعا له عما يضاد محبته وينقصها والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب وان لايشرك بينه وبين غيره في محبته واذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار ان يشرك فى محبته غيره ويمقته لذلك ويبعده ولا يحظيه بقربه ويعده كاذبا فى دعوي محبته مع انه ليس أهلا لصرف قوة المحبة اليه فكيف بالحبيب الاعلى الذي لاتنبغي المحبة الا له وحده وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبالا ولهذا لايغفر سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فمحبة الصور تفوت محبة ماهو أنفع للعبد منها بل يفوت محبة ماليس له صلاح ولا نعيم ولا حيوة نافعة الا بمحبته وحده فليختر إحدى المحبتين فانهما لايجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق الى لقائه إبتلاه بمحبة غيره فيعذب بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة إما يعذبه بمحبة الاوثان أو بمحبة الصلبان أو بمحبة النيران أو بمحبة المردان أو بمحبة النسوان أو بمحبة الاثمان أو بمحبة العشراء والخلان أو بمحبة ماهو دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان فالانسان عبد محبوبه كائنا ما كان كما قيل

أنت القتيل بكل من أحببته * فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه كان إلهه هواه قال تعالى أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون

فصل

وخاصية التعبد الحب مع الخضوع والذل للمحبوب فمن أحب شيئاً وخضع له فقد

Marfat.com

تعبد قلبه له بل التعبد آخر مراتب الحب ويقال له التتيم أيضاً فان أول مراتبه العلاقة وسميت علاقة لتعلق الحب بالمحبوب قال الشاعر

وعلقت ليلى وهي ذات تمائم * ولم يبد للاتراب من ثديها ضخم

وقال الآخر

أعلاقة أم الوليد بعد ما * أفنان رأسك كالبغام الابيض

ثم بعدها الصبابة وسميت بذلك لانصباب القلب الى المحبوب قال الشاعر

يشكى المحبون الصبابة ليتني * تحملت مايلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها * فلم يلقها قبلى محب ولا بعدي

ثم الغرام وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لاينفك عنه ومنه سمى الغريم غريماً لملازمته صاحبه ومنه قوله تعالى إن عذابها كان غراماً وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب وقل أن تجده في أشعار العرب ثم العشق وهو سفر إفراط المحبة ولهذا لايوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه ثم الشوق وهو سفر القلب الى المحبوب أحث السفر وقد جاء إطلاقها في حق الرب تعالى كما في مسند الامام أحمد من حديث عمار بن ياسر إنه صلا صلاة فاوجز فيها فقيل له في ذلك فقال أما إني دعوت فيها بدعوات كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بهن اللهم إني أسئلك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني اذا كانت الحياة خيرا لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى اللهم إني أسئلك خشيتك في الغيب والشهادة وأسئلك كلمة الحق في الرضاء والغضب وأسئلك القصد في الفقر والغنى وأسئلك نعيما لاينفذ وأسئلك قرة عين لاتنقطع وأسئلك الرضاء بعد القضاء وأسئلك برد العيش بعد الموت وأسئلك لذة النظر الى وجهك الكريم وأسئلك الشوق الى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين وفي أثر آخر طال شوق الابرار الى وجهك وأنا الى لقائهم أشد شوقا وهذا هو المعنى الذي عبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى من كان يرجوا لقاء الله فان أجل الله لآت لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه الى لقائه وان قلوبهم لاتهدي دون لقائه ضرب لهم أجلا موعداً للقائه تسكن نفوسهم به وأطيب العيش واللذة على الاطلاق عيش المشتاقين المستأنسين فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها فهى الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى من عمل صالحاً من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والابرار والفجار من طيب المأكل والمشرب والملبس والمنكح

Marfat.com

بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه فى ذلك أضعافا مضاعفة وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة فهو صادق الوعد الذي لايخلف وعده وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هما واحدة فى مرضات الله ولم يستشعب قلبه بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وإنكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة على الله فصار ذكر محبوبه الاعلى وحبه والشوق الى لقائه والانس بقربه وهو المتولى عليه وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره بل خطرات قلبه فان سكت سكت بالله وإن نطق نطق بالله وإن سمع فبه يسمع وإن أبصر فبه يبصر وبه يبطش وبه يمشى وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيى وبه يموت وبه يبعث كما فى صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال ماتقرب الى عبدى بمثل أداء ماافترضت عليه ولايزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتي أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشى ولئن سألني لاعطينه ولئن استعاذ بي لاعيذنه وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن من يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه فتضمن هذا الحديث الشريف الالهى الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به حصر أسباب محبته فى أمرين أداء فرائضه والتقرب اليه بالنوافل وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب مما تقرب اليه المتقربون ثم بعدها النوافل وأن المحب لايزال يكثر من النوافل حتي يصير محبوبا لله فاذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الاولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وملكت عليه روحه ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلى مالكا لزمام قلبه مستوليا على روحه إستيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له ولا ريب ان هذا المحب ان سمع سمع لمحبوبه وان أبصر أبصر به وان بطش بطش به وان مشي مشي به فهو في قلبه ومعه ومؤنسه وصاحبه فالباء هنا باء المصاحبة وهى مصاحبة لانظير لها ولاتدرك بمجرد الاخبار عنها والعلم بها فالمسألة خالية لاعلمية محضة واذا كان المخلوق يجد هذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها كما قال بعض المحبين

خيالك في عيني وذكرك في فمي * ومثواك فى قلبي فأين تغيب

(وقال الآخر)

وتطلبهم عيني وهم في سوادها * ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعى
ومن عجب أني أحن اليهم * فأسئل عنهم من لقيت وهم معي

Marfat.com

(وهذا ألطف من قول الآخر)

إن قلت غبت فقلبي لايصدقني * إذ أنت فيــه مكان السرلم تغب
أوقلت ماغبت قال الطرف ذا كذب * فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شيء أدني من المحب لمحبوبه وربما تمكنت المحبة حتى يصيرفى المحبة أدنى اليه من نفسه بحيث ينسي نفسه ولا ينساه كما قيل

أريد لأنسي ذكره فكأنما * تمثل لي ليــلى بكل سبيل

(وقال الآخر)

يراد من القلب نسيانكم * وتأبي الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فان هذه الآلات آلات الادراك وآلات الفعل والسمع والبصر يوردان على القلب الارادة والكراهة ويجلبان اليه الحب والبغض فتستعمل اليد والرجل فاذا كان سمع العبد بالله وبصره به كان محفوظاً في آلات إدراكه فكان محفوظاً في حبه وبغضه فحفظ في بطشه ومشيه وتأمل كيف اكتفي بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان فانه اذا كان ادراك السمع الذى يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة وكذلك حركة اليد والرجل التي لابد للعبــد منها فكيف بحركة اللسان التي لايقع الا بقصد واختيار وقد يستغنى العبد عنها الا حيث أمر بها وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح فانه ترجمانه ورسوله وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به عند سمعه وبصره الذى يبصر به وبطشه ومشيه بقوله كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها تحقيقاً لكونه مع عبده وكون عبده فى إدراكاته بسمعه وبصره وحركته بيديه ورجله وتأمل كيف قال بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش ولم يقل فلي يسمع ولى يبصر ولى يبطش وربما يظن الظان ان اللام أولى بهذا الموضع إذ هي أدل على الغاية ووقوع هذه الامور لله وذلك أخص من وقوعها به وهذا من الوهم والغلط إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة فان حركات الابرار والفجار وإدراكاتهم انما هي بمعونة الله لهم وان الباء ههنا للمصاحبة إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه ومعه كقوله في الحديث الآخر أنا مع عبدى ماذكرني وتحركت بى شفتاه وهذه المعية هي المعية الخاصة المذكورة في قوله تعالى إن الله معنا وقول النبى صلى الله عليه وسلم ماظنك باثنين الله ثالثهما وقوله تعالى وإن الله لمع المحسنين وقوله إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وقوله واصبروا إن الله مع الصابرين وقوله كلا إن معي ربي سيهدين وقوله تعالى لموسى

وهارون إنني معكما أسمع وأرى فهذه الباء مفيدة بمعني هذا المعية دون اللام ولا يتأتى للعبد الاخلاص والصبر والتوكل ونزوله في منازل العبودية الا بهذه الباء وهذه المعيةفمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت المخاوف في حقه أمانا فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير ويقرب كل بعيد وبالله تزول الاحزان والهموم والغموم فلا هم مع الله ولاغم مع الله ولا حزن مع الله وحيث يفوت العبد معني هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتي يعود اليهوالما حصلت هذه الموافقة مع العبد لربه تعالى فى محابه حصلت موافقة الرب لعبده فى حوائجه ومطالبه فقال ولئن سئلني لاعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه أى كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري والتقرب الى بمحابي فانا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسئاني أن أفعل به ويستعيذني أن يناله مكروه وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في اماتة عبده ولأنه يكره الموت والرب تعالى يكره مايكره عبدهويكره مساءته فمن هذه الجهة تقتضى انه لايميتهولكن مصلحته في إماتته فانه مالاماته الاليحييه وما أمرضه الا ليصحه وما أفقره الا ليغنيهوما منعه الا ليعطيه ولم يخرج من الجنة فى صلب أبيه الا ليعيده اليها على أحسن الاحوال ولم يقل لابيهأخرج منهاالا ليعيده اليهافهذا هوالحبيب على الحقيقةلاسواه بل لو كان في كل منبت شعر لعبد محبة تامة لله لكان بعض مايستحقه على عبده

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل فى الارض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لاول منزل

فصل

ثم التتيم وهوآخر مراتب الحب وهو تعبد المحب لمحبوبه يقال تيمه الحب إذا عبده ومنه تيم الله أي عبدالله وحقيقةالتعبد الذل والخضوع للمحبوب ومنه قولهم طريق معبدأي مذلل قذذلاته الاقدام فالعبدهوالذي ذلله الحب والخضوع لمحبوبهولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته في العبودية فلا منزل له أشرف منها وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم اليه وهو رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالعبودية في أشرف مقاماته وهي مقام الدعوة اليه ومقام التحدي بالنبوة ومقام الاسرى فقال سبحانهوانهلما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداوقال وإن كنتم في ريب مما نزلناعلى عبدنا فأتوا بسورة من مثله وقال سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وفي حديث الشفاعة إذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم عبد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر

Marfat.com

فقال مقام الشفاعة بكمال عبوديته وكمال مغفرة الله له والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لاشريك له التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل وهذاهو حقيقة الاسلام وملة ابراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه قال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه الآيه ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك والله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء واصل الشرك بالله الاشراك مع الله في المحبة كما قال تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأخبر سبحانه إن من الناس من يشرك به من دونه فيتخذالانداد من دونه يحبهم كحب الله وأخبر ان الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الانداد لاندادهم وقيل بل المعني انهم أشد حبا لله من أصحاب الانداد لله فانهم وان أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين اندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الانداد هو في هذه المحبة ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه وليا او شفيعا غاية الانكار وجمع ذلك تارة وأفرد واحدهما عن الآخر تارة بالانكار فقال تعالى إن ربكم الله الذى خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر مامن شفيع الا من بعد اذنه وقال تعالى الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون وقال تعالى وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون وقال فى الافراد أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً وقال تعالى من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم فاذا والى العبد ربه وحده وأقام له ولياً من شفعاء وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله بخلاف من اتخذ مخلوقا أولياء من دون الله فهذا لون وذاك لون والشفاعة الشركيه الباطلة لون والشفاعة الحق الثابتة التي انما تنال بالتوحيد لون وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم والمقصود ان حقيقة العبودية وموجباته لاتخلص مع الاشراك بالله في المحبة بخلاف المحبة لله فانها من لوازم العبودية وموجباتها فان محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بل تقديمه في الحب على الانفس وعلى الآباء والابناء لايتم الايمان الا بها اذ محبته من محبة الله وكذلك كل حب في الله ولله كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان وفي لفظ في الصحيح لايجد عبد طعم الايمان

الا من كان في قلبه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب اليه مماسواهماوان يحب المرأ لايحبه الا لله وان يكره أن يرجع الى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار وفي الحديث الذي في السنن من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان وفي حديث آخر ماتحاب رجلان في الله الا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه فان هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها وكل ما كانت أقوى كان أصلها كذلك

فصل

وههنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينهما وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينهما أحدها محبة الله ولاتكفي وحدها في النجاة من الله من عذابه والفوز بثوابه فان المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله الثاني محبة مايحب الله وهذه هي التي تدخله في الاسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس الى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها الثالث الحب لله وفيه وهي من لوازم محبة ما يحب الله ولا يستقيم محبة مايحب الله الا بالحب فيه وله الرابع المحبة مع الله وهى المحبة الشركية وكل من أحب شيئاً مع الله لالله ولا من أجله ولافيه فقد اتخذه نداً من دون الله وهذه محبة المشركين وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه وهى المحبة الطبيعية وهي ميل الانسان الى مايلائم طبعه كمحبة العطشان للماء والجائع للطعام ومحبة النوم والزوجة والولد فتلك لاتذم مالا إن ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته كما قال تعالى ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله وقال تعالى رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

فصل

ثم الخلة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها بحيث لايبقى في القلب لمحبه سعة لغير محبوبه وهي منصب لايقبل المشاركة بوجه وهذا المنصب خاصة للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما إبراهيم ومحمد كما قال صلى الله عليه وسلم إن الله إتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذاً من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله وفي حديث آخر اني أبرىء الى كل خليل من خلته ولما سأل ابراهيم عليه السلام الولد فاعطيه فتعلق حبه بقلبه فاخذ منه شعبه غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره فامر بذبحه وكان الامر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانا ولم يكن المقصود ذبح الولد ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب فلما بادر الخليل عليه الصلات والسلام الى الامتثال وقدم

Marfat.com

محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم فان الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً بل لابد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها وقال لايبدل القول لدى خمس في الفعل وخمسون في الاجر

فصل

وأما مايظنه بعض الظانين ان المحبة أكمل من الخلة وان إبراهيم خليل الله ومحمد صلى الله عليه وسلم حبيب الله فمن جهله فان المحبة عامة والخلة خاصة والخلة نهاية المحبة وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الله اتخذ إبراهيم خليلا ونفى أن يكون له خليل غير ربه مع اخباره لحبه لعائشة ولابيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم وأيضاً فان الله سبحانه يحب التوابين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام والشاب التائب حبيب الله وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

فصل

وقد تقدم أن العبد لايترك مايحب ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ولكن يترك أضعفهما محبة لاقواهما محبة كما انه يفعل مايكره لحصول مامحبته أقوي عنده من كراهة مايفعله والخلاص من مكروه كراهته عنده أقوي من كراهة مايفعله وتقدم ان خاصية العقل إيثار على المحبوبين على أدناهما وأيسر المكروهين على أقواهما وتقدم ان هذا الكمال قوة الحب والبغض ولم يتم له هذا إلا بامرين قوة الادراك وشجاعة القلب فان التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكونا ما بضعف الادراك بحيث إن لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما كان عليه إما لضعف في النفس وعجز في القلب لايطاوعه الايثار الا صاح له مع علمه بانه الاصلح فاذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع القلب على إيثار المحبوب الاعلى والمكروه الادني فقد وافق لاسباب السعادة فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوي من سلطان عقله وإيمانه فيقهر الغالب الضعيف ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبا عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ويقدم شهوته على عقله وتسميه الاطباء عديم المروءة فهكذا أكثر مرضى القلب يؤثرون مايزيد مرضهم لقوة شهوتهم له فاصل الشر من ضعف الادراك وضعف النفس ودنائتها وأصل الخير من كمال الادراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها فالحب والارادة أصل كل فعل

Marfat.com

ومبدأه والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدأه وهاتان القوتان في القلب أصل سعادته وشقاوته ووجود العقل الاختيارى لايكون إلابوجود سببه من الحب والارادة وأماعدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضاه وسببه وتارة يكون بوجود البغض والكراهة المانع منه وهذا متعلق الامر والنهى وهويسمي الكف وهو متعلق الثواب والعقاب وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك هل هو أمروجودي أوعدمي والتحقيق انه قسمان فالترك المضاف الى عدم السبب المقتضي عدمي والمضاف الى السبب المانع من الفعل وجودى

فصل

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين فانما يؤثر الحي لما فيه من الحصول والمنفعة التي يلتذ بحصولها أوزوال الالم الذي يحصل له الشفاء بزواله ولهذا يقال شفاء صدره وشفاء قلبه قال

هي الشفاء لداء لوظفرت بها * وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل حتي الحيوان البهيم ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحا فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الالم فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ويشفى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب وخاصة العقل النظر في العواقب فاعقل الناس من أثر لذة نفسه وراحته في الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة وأسفه الخلق من باع نعيم الابدوطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لاتنغيص فيها ولانقص بوجه مابلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء قال بعض العلماء فكرت في سعي العقلاء فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد وإن اختلفت طرقهم في تحصيله رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم فهذا في الاكل والشرب وهذا في التجارة والكسب وهذا بالنكاح وهذا بسماع الغناء والاصوات المطربة وهذا باللهو واللعب فقلت هـذا المطلوب مطلوب العقلاء ولكن الطرق كلها غير موصلة اليه بل لعل أكثرها إنما يوصل الى ضده ولم أرفي جميع هـذه الطرق طريقاً موصلا اليه بل لعل أكثرها إنما يؤثر الى الاقبال على الله وحـده ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء فان سالك هذا الطريق ان فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالى الذى لافوت معه وإن حصل للعبد حصل له كل شيء وإن فاته فاته كل شيء وان ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهني الوجوه فليس للعبد أنفع من هـذا الطريق ولا أوصل منه الى لذته وبهجته وسعادته وبالله التوفيق

Marfat.com

فصل

والمحبوب قسمان محبوب لنفسه ومحبوب لغيره ولابد أن ينتهي الى المحبوب لنفسه دفعا للتسلسل المحال وكل ماسوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره وليس شيء يحب لنفسه الا الله وحده وكل ماسواه مما يحب فانما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى كمحبة ملائكته وانبيائه وأوليائه فانها تبع لمحبته سبحانه وهي من لوازم محبته فان محبة المحبوب توجب محبة مايحبه وهذا موضع يجب الاعتناء به فانه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والتي لاتنفع بل قد تضر واعلم إنه لايحبه لذاته الا من كماله من لوازم ذاته وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته وماسواه فانما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها فما كان أشد منافاة لمحابه كان أشد كراهة من الاعيان والاوصاف والافعال والارادات وغيرها فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته فاذا رأينا شخصا يحب مايكرهه الرب تعالى ويكره مايحبه علمنا ان فيه من معاداته بحسب ذلك واذا رأينا الشخص يحب مايحبه الرب ويكره مايكرهه وكلما كان الشيء أحب الى الرب كان أحب اليه وأثره عنده وكلما كان أبغض اليه كان أبغض اليه وأبعد منه علمنا ان فيه من موالات الرب بحسب ذلك فتمسك بهذا الاصل غاية التمسك فى نفسك وفي غيرك فالولاية عبارة عن موافقة الولى الحميد في محابه ومساخطه ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة والمحبوب لغيره قسمان أيضاً أحدهما مايلتذ المحب بادراكه وحصوله والثاني مايتألم به ولكن يحتمله لافضائه الى المحبوب كشرب الدواء الكريه قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسي أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون فاخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع إنهم خير لهم لافضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه والنفوس تحب الراحة والفراغة والرفاهية وذلك شرلها لافضائه إلى فوات هذا المحبوب فالعاقل لاينظر الى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه فان ذلك قديكون شرا له بل قديجاب عليه غاية الألم وتفوته أعظم اللذة بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لمايعقبهم من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة فالامور أربعة مكروه يوصل الى مكروه ومكروه يوصل الى محبوب ومحبوب يوصل الى محبوب ومحبوب يوصل الى مكروه فالمحبوب الموصل الى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين والمكروه الموصل الى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين بقى قسمان الاخران يتجاوز بهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منهما وهو العاجل والعقل

والعقل والايمان يؤثرا نفعهما وإبقائها والقلب بين الداعيين وهو الى هذا مرة والى هذا مرة وهنا محل الابتلاء شرعا وقدرا فداعي العقل والايمان ينادي كل وقت حي على الفلاح عند الصباح يحمد القوم السري وفي الممات يحمد العبد التقى فان اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والارادة يقول

يانفس اصبرى فما هى الاساعــة * ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول

فصل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فأصل الاعمال الدينية حب الله ورسوله كما إن أصل الاقوال الدينية تصديق الله ورسوله وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هــذه المحبة وشبهه منع كمال التصديق في معارضة لاصل الايمان أو مضعفة له فان قويت حتي عارضت أصلي الحب والتصديق كانت كفرا وشركا أكبر وإن لم تعارضه قدحت في كماله وأثرت فيه ضعفا وفتوراً في العزيمة والطلب وهى تحجب الواصل وتقطع الطالب وتنكي الراغب فلا تصلح الموالات إلا بالمعادات كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين انه قال لقومه أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدولي إلا رب العالمين فلم تصلح لخليل الله هذه الموالات والخلة إلا بتحقيق هذه المعادات فان ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتي تؤمنوا بالله وحده وقال تعالى وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني برآء مما تعبدون إلا الذى فطرني فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون أي جعل هذه الموالات لله والبراءة من كل معبود سواه كلمــه باقية في عقبه يتوارثها الانبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة لا إله إلا الله وهي التى ورثها إمام الحنفاء لاتباعه الي يوم القيامة وهى الكلمة التي قامت بها الارض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت القبلة وجردت سيوف الجهاد وهى محض حق الله على جميع العباد وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار وهى النشور الذي لاتدخل الجنة إلا به والحبل الذي لايصل الى الله من لم يتعلق بسببه وهى كلمــة الاسلام ومفتاح دار السلام وبها تنقسم الناس الى شقى وسعيد ومقبول وطريد وبها انفصلت دار الكفر من دار الاســلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان وهى العمود الحامل للفرض والسنة ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وروح هذه الكلمة وسرها

Marfat.com

إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جـده ولاإله غيره بالمحبة والاجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والانابة والرغبة والرهبة فلايحب سواه بل كل ماكان يحب غـيره فانما هوتبعا لمحبته وكونه وسيلة الى زيادة محبته ولايخاف سواه ولايرجي سواه ولايتوكل إلاعليه ولايرغب إلااليه ولايرهب إلامنه ولا يحلف إلا باسمه ولاينذر إلا له ولايتاب إلا اليه ولايطاع إلا أمره ولايحتسب إلابه ولا يستعان في الشدائد إلابه ولايلتجي إلااليه ولايسجد إلاله ولايذبح إلالله وباسمه يجتمع ذلك في حرف واحد وهو أن لايعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو فهذا هو تحقيق شهادة أن لاإله إلاالله ولهذا حرم الله على النار من شهد أن لاإله إلاالله حقيقة الشهادة ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هـذه الشهادة وقام بها كما قال تعالى والذين هم بشهاداتهم قائمون فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه فان من الناس من تكون شهادته ميتة ومنهم من تكون نائمة اذا نبهت انتبهت ومنهم من تكون مضطجعة ومنهم من تكون الى القيام أقرب وهى في القلب بمنزلة الروح في البدن فروح ميتة وروح مريضة الى الموت أقرب وروح الى الحياة أقرب وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن وفي الحديث الصحيح عنه صلي الله عليه وسلم إني لأعلم كلمة لايقولها عبد عند الموت الا وجدت روحه لهاروحا فحياة هذه الروح بهذه الكلمة فيها فكما ان حياة البدن بوجود الروح فيه وكما ان من مات على هـذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشها أطيب عيش قال تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى فالجنة مأواه يوم اللقاء وجنة المعرفة والمحبة والانس بالله والشوق الى لقائه والفرح به والرضى عنه وبه مأوى روحه في هذه الدار فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً والابرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا والفجار في جحيم وإن إتسعت عليهم الدنيا قال تعالى من عمل صالحاً من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة وطيب الحياة جنة الدنيا قال تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً فاي نعيم أطيب من شرح الصدر وأي عذاب أضيق من ضيق الصدر وقال تعالى ألاإن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم فالمؤمن المخاص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم بالا وأشرحهم صدراً وأسرهم قلباً وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا مررتم

برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومن هـذا قوله وقد سئلوه عن وصاله في الصوم وقال اني لست كهيئتكم اني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني فاخبر صلى الله عليه وسلم إن مايحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي وإن مايحصل له من ذلك أمر مختصاً به لايشركه فيه غيره فاذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغنى عنه كما قيل

لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لهـا بوجهك نور يستضيء به * ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا اشتكت من كلال السير أوعدها * روح اللقاء فتحي عند ميعادى

وكل ما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو اليه أحوج كان تألمه بفقده أشد وكل ما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد ولا شيء على الاطلاق أنفع للعبـد من إقباله على الله واشتغاله بذكره وتنعمه بحبه وإيثاره لرضاته بل لاحياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة الا بذلك فعدمه ألم شيء له وأشد عذاباً عليه وإنما تغيب الروح عن شهود هـذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره واستغراقها في ذلك الغير فتغيب به عن شهود ماهي فيـه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء اليها وأنفعه لها وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه في السكر لايشعر بألم ذلك الفوات وحسرته حتى إذا صحى وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والاشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها الى الله بل الالم والحسرة والعذاب هناك أشد باضعاف أضعاف ذلك فان المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته في الدنيا بالعوض ويعـلم إنه قد أصيب بشيء زائل لابقاء له فكيف بمن مصيبته بمالا عوض عنه ولا بدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعا فلو قضي الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به وان الموت لايعود أكبر أمنيته وأكبر حسراته هذا لو كان الألم على مجرد الفوات كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية مالا يقدر قدره فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الاثمين العظيمين اللذين لاتحملهما الجبال الرواسي فاعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا بحيث لاتطيب لك الحياة الا معه فاصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت اليه كيف يكون حالك هذا ومنه كل عوض فكيف بمن لاعوض عنه كما قيل

Marfat.com

من كل شيء اذا ضيعته عوض * وما من الله أن ضيعته عوض

وفي الأثر الالهى بن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ابن آدم أطلبني تجدني فان وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب اليك من كل شيء

فصل

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب مايذكر فيها في حق الله تعالى مايختص به ويليق به من أنواعها ولا يصلح الا له وحده مثل العبادة والانابة ونحوهما فان العبادة لاتصلح الا له وحده وكذا الانابة وقد ذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه وقوله تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله وأعظم أنواع المحبة المذمومة المحبة مع الله التي سوى فيها المحب بين محبة الله ومحبته للند الذي إتخذه من دون الله وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لاينجو أحد من العذاب إلابها والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها التي لايبقى في العذاب الا أهلها فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لاشريك له لايدخلون النار من دخلها منهم بذنوبه فانه لايبقى فيها منهم أحد ومدار القرآن على الامر بتلك المحبة ولوازمها والنهى عن المحبة الاخرى ولوازمها وضرب الامثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص ولوازمها النوعين وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منهما واخباره عن فعله ولنوعين وعن حال النوعين في الدور الثلاثة دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار والقران بافي شأن النوعين وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم الى آخرهم إنما هو عبادة الله وحده لاشريك له المتضمنة لكمال حبه وكمال الخضوع والذل له والاجلال والتعظيم ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يارسول الله والله لانت أحب الي من كل شيء إلامن نفسي فقال لا ياعمر حتى أكون أحب اليك من نفسك فقال والذي بعثك بالحق لانت أحب الي من نفسي فقال الآن ياعمر فاذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ووجوب تقديمها على محبة النفس ووالده وولده والناس أجمعين فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ووجوب تقديمها على محبة ماسواه

ومحبة الرب تعالى تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها فان الواجب له من ذلك كله أن يكون الى العبد أحب اليه من ولده ووالده بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب اليه من ذلك كله والشيء قد يحب من وجه دون وجه وقد يحب بغيره وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ولا تصلح الالوهية إلا له ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا والتأله هو المحبة والطاعة والخضوع

﴿ فصل ﴾

وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة فهي علتها الفاعلية والغائية وذلك لان الحركات ثلاثة أنواع حركة إختيارية إرادية وحركة طبيعية وحركة قسرية فالحركة الطبيعية أصلها السكون وإنما يتحرك الجسم اذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي فهو يتحرك للعود اليه وخروجه عن مركزه ومستقره وإنما يتحرك بتحرك القاسر المحرك له فله حركة قسرية تحرك بتحريك محركه وقاسره وحركة طبيعية بذاتها تطلب بها العود الى مركزه وكلا حركتيه تابع للمحرك القاسر فهو أصل الحركتين والحركة الاختيارية الارادية هي أصل الحركتين الآخرتين وهي تابعة للارادة والمحبة فصارت الحركات الثلاث تابعة للمحبة والارادة والدليل على انحصار الحركات في هذه الثلاث أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الارادية وان لم يكن له شعور بها فاما أن يكون على وفق طبيعته الاولى فالاولى هي الطبيعية والثانية هي القسرية إذا فهمت هذا فما في السموات والارض وما بينهما من حركات الافلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة في بطون أمهاتها فانما هي بواسطة الملائكة المدبرات أمراً والمقسمات أمراً كما دل على ذلك نصوص القرآن والسنة في غير موضع والايمان بذلك من تمام الايمان بالملائكة فان الله وكل بالرحم ملائكة وبالقطر ملائكة وبالنبات ملائكة وبالرياح ملائكة وبالافلاك والشمس والقمر والنجوم ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة كاتبين على يمينه وعلى شماله وحافظين من بين يديه ومن خلفه ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها الى مستقرها من الجنة والنار وملائكة بمسألته وإمتحانه في قبره وعذابه هناك أو نعيمه وملائكة تسوقه الى المحشر إذا قام من قبره وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة ووكل بالجبال ملائكة وبالسحاب ملائكة تسوقه الى حيث أمرت به وملائكة بالقطر تنزله بامر الله بقدر معلوم كما شاء الله ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلاتها وفرشها وثيابها والقيام عليها وملائكة بالنار كذلك فاعظم جند الله الملائكة ولفظ الملك يشعر بانه رسول منفذ لامر غيره

Marfat.com

وليس لهم من الامر شيء بل الامر كله لله وهم يدبرون الامر ويقسمونه باذن الله وأمره قال تعالي إخبارا عنهم وما نتنزل الا بامر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا وقال تعالى وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لامره في الخليقة كما قال تعالى والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً وقال والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشرا فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً عذرا أو نذرا وقال تعالى والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً وقد ذكرنا معني ذلك وسر الاقسام في كتاب أقسام القرآن اذا عرف ذلك فجميع تلك المحبات والحركات والأرادات والافعال هي عباداتهم لرب الارض والسموات وجميع الحركات الطبيعيه والقسرية تابعة لهافلولا الحب مادارت الافلاك ولا تحركت الكواكب النيرات ولاهبت الرياح المسخرات ولا مرت السحاب الحاملات ولا تحركت الأجنة في بطون الامهات ولا أنصدع عن الحب أنواع النبات ولااضطربت أمواج البحار الزاجرات ولا تحركت المدبرات والمقسمات ولا سبحت بحمد فاطرها الارض والسموات وما فيها من أنواع المخلوقات فسبحان من تسبحه السموات والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً

فصل

إذا عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل يحسنه وكل متحرك فأصل حركته المحبة والارادة والاصلاح للموجودات الا بان تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وباريها وحده كما لاوجود لها الا بأبداعه وحده ولهذا قال تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ولم يقل سبحانه لما وجدتا ولكانتا معدومتين ولا قال لعدمتا اذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد لكن لايمكن أن تكون على وجه الصلاح والاستقامة الا بان يكون الله وحده وهو معبود لهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد فان كل إله يطلب مغالبة الآخر والعلو عليه وتفرده دونه بالالهية اذ الشريك نقص في كمال الالهية والاله لايرضى لنفسه أن يكون إلهاً ناقصاً فان قهر أحدهما الآخر كان هو الاله وحده والمقهور ليس بالله وان لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ولم يكن تام الالهية فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر

وفي ذلك فساد أمر السموات والارض ومن فيهما كما هو المعهود من فساد البلد اذا كان فيها ملـكان متكافئان وفساد الزوجة اذا كان لها بعلان والشول اذا كان فيه فحلان واصل فساد العالم انما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء ولهذا لم تطمع أعداء الاسلام فيهم في زمن من الازمنة الا في زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم وانفراد كل واحد منهم ببلاد وطلب بعضهم العلو على بعض فصلاح السموات والارض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام ومن اظهر الأدلة على انه لا إله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير وان كل معبود من لدن عرشه الى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى قال الله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون وقال تعالى أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وقال تعالى قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلا قيل المعني لابتغوا السبيل اليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ويدل عليه قوله في الآية الاخري ولعلى بعضهم على بعض قال شيخنا والصحيح ان المعنى لابتغوا اليه سبيلا بالتقرب اليه وطاعته فكيف تعبدونهم من دونه وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له قال ويدل على هذا وجوه منها قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه أي هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي فلماذا تعبدونهم من دوني الثاني انه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا قال لابتغوا اليه سبيلا وهـذا اللفظ إنما يستعمل في القرب كقوله تعالى اتقوا الله وابتغوا الوسيلة وأما في المغالبة فانما يستعمل بعلى كقوله فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا الثالث إنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه وهو سبحانه قال قل لو كان معه آلهة كما يقولون وهم انما كانوا يقولون ان آلهتهم تبتغي التقرب اليه وتقربهم زلفى اليه قال تعالى لو كان الامر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له فلماذا تعبدون عبيده من دونه

فصل

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام سواء كانت محمودة أو مذمومة نافعة أو ضارة من الوجه والذوق والحلاوة والشوق والانس والاتصال بالمحبوب والقرب منه والانفصال عنه والبعد منه والصد والهجران والفرح والسرور والبكا والحزن وغير ذلك من أحكامها

Marfat.com

ولوازمها والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ماينفعه في دنياه وآخرته وهذه المحبة هي عنوان السعادة وضدها هي التي تجلب لصاحبها مايضره في دنياه وآخرته وهي عنوان الشقاوة ومعلوم ان الحي العاقل لايختار محبة ما يضره ويشقيه وإنما يصدر ذلك عن جهله وظلمه فان النفس قد تهوي مايضرها ولا ينفعها وذلك ظلم من الانسان لنفسه اما ان تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بان تهوي الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة وهذا حال من اتبع هواه بغير علم واما عالمة بما في محبته من الضرر لكن يؤثر هواها على علمها وقد تتركب محبتها من أمرين من إعتقاد فاسد وهوي مذموم وهذا حال من اتبع الظن وما تهوي الانفس فلا تقع المحبة الفاسدة الا من جهل أو اعتقاد فاسد وهو غالب أو ما تركب من ذلك فاعان بعضه بعضاً فتتفق شبهة يشتبه بها الحق بالباطل يزين له أمر المحبوب وشهوة تدعوه الى وصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والايمان والغلبة لاقواهما اذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له حكمها حكم متبوعها فان بكي نفعه وإن حزن نفعه وإن فرح نفعه وإن انبسط نفعه وإن انقبض نفعه فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة والمحبة المضرة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه كيف ماتقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية فكل ماتولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقرب وكل ماتولد من المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد قال تعالى ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤن موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون فأخبر سبحانه في الاية الاولى أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح وأخبر في الثانية أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها والفرق بينهما ان الاول ليس من فعلهم وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح والثاني نفس أفعالهم فكتب لهم فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ماله وما عليه

سيعلم يوم العرض اي بضاعة * اضاع وعند الوزن ما كان حصلا

فصل

وكما ان المحبة والارادة أصل كل فعل كما تقدم فهي أصل كل دين سواء كان حقا أم

Marfat.com

باطلا فان الدين هومن الاعمال الباطنة والظاهرة والمحبة والارادة أصل ذلك كله والدين هوالطاعة والعبادة والخلق فهوالطاعة اللازمـة الدائمة التي صارت خلقا وعادة ولهذا فسر الخلق بالدين في قوله تعالى وإنك لعلى خلق عظيم قال الامام أحمد عن ابن عيينة قال ابن عباس لعلى دين عظيم وسئلت عائشة عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن والدين فيه معنى الاذلال والقهروفيه معني الذل والخضوع والطاعة فلذلك يكون من الاعلى الى الاسفل كما يقال دنته فدان أي قهرته فذل قال الشاعر

هوأدني الزمان أذكرهذا الدين * فاصبحوا بغـرة وصيـان

ويكون من الادني الى الاعلى كما يقال دنت الله ودنت لله وفلان لايدين الله ديناً ولايدين الله بدين فـدان الله أي أطاع الله وأحبه وخافه ودان لله أي خشع له وخضع وذل وانقاد والدين الباطن لابد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فانه لايستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل فى الظاهر وسمي الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لانه اليوم الذي يدين فيه الناس فيه باعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر وذلك يتضمن جزاؤهم وحسابهم فلذلك فسروا بيوم الجزاء ويوم الحساب وقال تعالي فلولا إن كنتم غير مدينين يرجعونها ن كنتم صادقين أي هلا تردون الروح الى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولامجزيين وهذه الآية تحتاج الى تفسير فانها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب ولابد أن يكون الدليل مستلزم لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه الى المدلول لمابينهما من التلازم فيكون الملزوم دليل على لازمه ولايجب العكس ووجه الاستدلال أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته فاما أن يقروا بان لهم رباقاهراً متصرفا فيهم يميتهم إذا شاء ويحييهم إذا شاء ويأمرهم وينهاهم ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم وأما أن لايقروا برب هذا شأنه فان أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الامري والجزائي وإن أنكروه كفروا به فقدزعموا إنهم غير مربوبين ولامحكوم عليه ولاالهم رب يتصرف فيهم كما أراد فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم اذا جاءهم وعلى رد الروح الى مستقرها إذا بلغت الحلقوم وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضروهم يعاينون موته اى فهلايردون الروح الى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولامقهورين لقاهر قادريمضى عليكم أحكامه وينفذ فيكم أوامره وهذه غاية التعجيز لهم إذا تبين عجزهم عن رد نفس واحدة الى مكانها ولواجتمع على ذلك الثقلان فيالها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامـه فيهم وجريانها عليهم والدين دينان دين شرعى أمري ودين حسابي جزائي وكلاهما لله وحده فالدين كله أمراً

Marfat.com

أوجزاء والمحبة أصل كل واحد من الدينين فان ماشرعه وأمر به فانه يحبه ويرضاه وما نهى عنه فانه يكرهـه ويبغضه لمنافاته لمايحبه ويرضاه فهو يحب ضده فعاد دينه الامري كله الى محبته ورضاه ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ولاجلها شرع وعليها أسس وكذلك دينه الجزائي فانه يتضمن مجازات المحسن باحسانه والمسيء باساءته وكل من الامرين محبوب للرب فانهما عدله وفضله وكلاهما من صفات كماله وهو سبحانه يحب صفاته وأسمائه ويحب من يحبها وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليـه فهو سبحانه على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه السلام إنه قال لقومه إني أشهد الله واشهدوا إني برئ مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لاتنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلاهو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ولما علم نبي الله أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره وثوابه وعقابه وقضائه وقدره ومنعه وعطائه وعافيته وبلائه وتوفيقه وخذلانه لايخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والاحسان والفضل ووضع الثواب في مواضعه والعقوبة في موضعها اللائق بها ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والاضلال كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء أوجب له ذلك العلم والعرفان إذ نادى على رؤس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله إني أشهد الله واشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه الآية ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره بكل ماسواه وذل كل شيء لعظمته فقال مامن دابة إلاهو آخذ بناصيتها فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه وهل هذا الامر الامن أجهل الجهل وأقبح الظلم ثم أخبر انه سبحانه على صراط مستقيم فكل مايقضيه ويقدره فلايخاف العبد جوره ولاظلمه فلاأخاف مادونه فان ناصيته بيده ولاأخاف جوره وظلمه فانه على صراط مستقيم وهو سبحانه ماض في عبده حكمه عدل فيه قضاؤه له الملك وله الحمد لايخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل إن أعطي وأكرم وهدي ووفق فبفضله ورحمته وإن منع وأهان وأضل وخذل وشقى فبعدله وحكمته وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا وفي الحديث الصحيح ما أصاب عبد قط هم ولاحزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسئلك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أوأنزلته في كتابك أوعلمته أحدا من خلقك أواستأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم

Marfat.com

ربيع قلبي ونور صدري وجلاء همي وحزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله فرجا مكانه وهذا يتناول حكم الرب الكوني والامري والقضاء الذي يكون باختيار العبد وبغير اختياره وكلا الحكمين ماض في عبده وكلا القضائين عدل فيه فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما أقرب نسب وبالله التوفيق

فصل

ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور ومافيه من المفاسد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف مايذكره ذاكر فانه يفسد القلب بالذات وإذافسد فسدت الارادات والاقوال والاعمال وفسد ثغر التوحيد كما تقدم وسنقرره أيضاً إن شاء الله تعالى والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء فاخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وماراودته وكادته به وأخبر عن الحال التي صار اليها يوسف بصبره وعفته وتقواه مع إن الذي ابتلى به أمر لايصبر عليه إلا من صبره الله عليه فان موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع وكان الداعي هاهنا في غاية القوة وذلك لوجوه أحدها ماركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله الى المرأة كما يميل العطشان الى الماء والجائع الى الطعام حتي إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولايصبر عن النساء وهذا لايذم اذا صادف حلالا بل يحمد كما فى كتاب الزهد للامام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم حبب الى من دنياكم الطيب والنساء أصبر عن الطعام والشراب ولاأصبر عنهن الثانى أن يوسف عليه السلام كان شابا وشهوة الشاب وحدته أقوى الثالث أنه كان عزبا لازوجة له ولاسرية تكسر شدة الشهوة الرابع أنه كان فى بلاد غربة يتأتي للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتي لغيره في وطنه وأهله ومعارفه الخامس أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الامرين يدعو الى موافقتها السادس أنها غير آبية ولاممتنعة فان كثيراً من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها لمايجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها وكثير من الناس يزيده الاباء والامتناع زيادة حب كما قال الشاعر

وزادني كلفا في الحب إن منعت * أحب شيء الى الانسان مامنعا

فطباع الناس مختلفة في ذلك فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها وتضمحل عند إبائها وإمتناعها وأخبرني بعض القضاة ان إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع زوجته أو سريته وإبائها بحيث لايعاودها ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ويشتد شوقه بكل

مامنع وتحصل له من اللذة بالظفر نظير مايحصل من لذة بالظفر بالضد بعد إمتناعه ونفاره واللذة بادراك المسئلة بعد إستصعابها وشدة الحرص على إدراكها السابع انها طابت واردت وبذلت الجهد فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة اليها بل كانت هي الراغبة الذليلة وهو العزيز المرغوب اليه الثامن إنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشي إن لم يطاوعها من اذاهاله فاجتمع داعي الرغبة والرهبة التاسع إنه لايخشي أن تنمي عليه هي ولا أحد من جهتها فانها هي الطالبة والراغبة وقد غلقت الابواب وغيبت الرقباء العاشر انه كان مملوكا لها في الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه وكان الامن سابقاً على الطلب وهو من أقوى الدواعي كما قيـل لامرأة شريفة من أشراف العرب ماحملك على الزنا قالت قرب الوساد وطول السواد تعني قرب وساد الرجل من وسادتي وطول السواد بيننا الحادي عشر أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأرته إياهن وشكت حالها اليهن لتستعين بهن عليه فاستعان هو بالله عليهن فقال وإلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين الثاني عشر أنها تواعدته بالسجن والصغار وهذا أنواع إكراه إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ماهدد به فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار الثالث عشر أن الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة مايفرق به بينهما ويبعد كلامنهما عن صاحبه بل كان غاية ماخاطبهما به أن قال يوسف أعرض عن هذا وللمرأة إستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع وهنا لم يظهر منه غيرة ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضات الله وخوفه وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا فقال رب السجن أحب الي مما يدعونني إليه وعلم أنه لايطيق صرف ذلك عن نفسه وان ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا اليهن بطبعه وكان من الجاهلين وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم مايزيد على الف فائدة لعلنا إن وفقنا الله أن نفردها في مصنف مستقل

فصل

والطائفة الثانية الذين حكى الله عنهم العشق هم اللوطية كما قال تعالى وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا ألم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فهذه عشقة فحكاه سبحانه عن طائفتين عشق كل منهما ماحرم عليه من الصور ولم يبال بما في عشقه من الضرر وهذا داء أعي الاطباء دواؤه وعز عليهم شفاؤه وهو والله الداء العضال والسم القتال

Marfat.com

الذي ماعاق بقلب الا وعز على الورى إستنقاذه من إسارة ولا اشتعلت نار في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره وهو أقسام وهو تارة يكون كفر لمن إتخذ معشوقه ندا يحبه كما يحب الله فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه فهذا عشق لا يغفر لصاحبه فانه من أعظم الشرك والله لا يغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالتوبة الماحية مادون ذلك وعلامة هذا العشق الشركي الكفري أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحقه وحق ربه وطاعته قدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاه على رضاه وبذل لمعشوقه أنفس مايقدر عليه وبذل لربه إن بذل أردى ماعنده واستفرغ وسعه في مرضات معشوقه وطاعته والتقرب اليه وجعل لربه إن أطاعه الفضلة التي تفضل عن معشوقه من ساعاته فتأمل حال أكثر عشاق الصور هل تجدها مطابقة لذلك ثم ضع حالهم في كفة وتوحيدهم في كفة وإيمانهم في كفة ثم زن وزنا يرضي الله ورسوله ويطابق العدل وربما صرح العاشق منهم بان وصل معشوقه أحب اليه من توحيد ربه كما قال العاشق الخبيث

يترشفن من فمي رشفات * هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر بان وصل معشوقه أشهى اليه من رحمة ربه فعياذا بك اللهم من هذا الخذلان ومن هذا الحال قال الشاعر

وصلك أشهى الى فؤادي * من رحمة الخالق الجليل

ولا ريب ان هذا العشق من أعظم الشرك وكثير من العشاق يصرح بانه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه البتة بل قد ملك معشوقه عليه قلبه كله فصار عبداً مخلصاً من كل وجه لمعشوقه فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية المخلوق مثله فان العبودية أي كمال الحب والخضوع وهذا قد استغرق قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية ولا نسبة بين مفسدة هذا الامر العظيم ومفسدة الفاحشة فان تلك ذنب كبير لفاعله حكمه حكم أمثاله ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول لئن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب الى من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله

فصل

ودواء هذا الداء القتال أن يعرف إنما إبتلى به من الداء المضاد للتوحيد أولا ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه ويكثر اللجاء والتضرع

Marfat.com

الى الله سبحانه في صرف ذلك عنه وان يرجع بقلبه اليه وليس له دواء أنفع من الاخلاص لله وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين فاخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل باخلاصه فان القلب اذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فانه انما تمكن من قلب فارغ كما قال

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع قد يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها فاذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران أمر علمي وأمر عملي فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة فاذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الاصلح له ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه أحدها الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره فلا يجتمع في القلب هذا وهذا الا ويقهر أحدهما صاحبه ويكون السلطان والغلبة له الثاني عذاب قلبه بمعشوقه فان من أحب شيئاً غير الله عذب به ولا بد كما قيل

فما في الارض أشقى من محب * وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حين * مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي ان نأوا شوقاً اليهم * ويبكي ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند الفراق * وتسخن عينه عند التلاق

والعشق وان استلذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب الثالث ان العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه فقلبه كالعصفورة في كف الطفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب فيعيش العاشق عيش الاسير الموثق ويعيش الخلي عيش المسيب المطلق والعاشق كما قيل

طليق برأي العين وهو أسير * عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يرى في صورة الحي غادياً * وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه * فليس له حتى الممات حضور

الرابع انه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور اما مصالح الدين فانها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله وعشق الصور أعظم شيئاً تشعيثا وتشتيتا له وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين فمن انفرط

Marfat.com

عليه مصالح دينه وضاعت عليه فمصالح دنياه أضيع وأضيع الخامس ان آفات الدنيا والآخرة أسرع الى عشاق الصور من النار في يابس الحطب وسبب ذلك إن القلب كلما قرب من العشق قوى اتصاله به بعد من الله فابعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور واذا بعد القلب من الله طرقته الآفات من كل ناحية فان الشيطان يتولاه ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يأله وبالا ولم يدع أذاً يمكنه إيصاله إليه الا أوصله فما الظن من قلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده وبعده من وليه ومن لا سعادة له ولا فلاح ولا سرور الا بقربه وولايته السادس انه اذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوساوس وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها واخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها يشاهد بالعيان وأشرف ما في الانسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات فاذا عدم عقله التحق بالبهائم بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله وهل اذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه الا العشق وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل

قالوا جننت بمن تهوي فقلت لهم * العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه * وإنما يصرع المجنون بالحين

السابع انه ربما أفسد الحواس أو نقصها إفساداً معنوياً أو صورياً أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب فان القلب اذا فسد فسدت العين والاذن واللسان فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعا حبك الشيء يعمي ويصم فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوي المحبوب وعيوبه فلا ترى العين ذلك ويصم أذنه عن الاصغاء الى العذل فيه فلا تسمع الاذن ذلك والرغبات تستر العيوب فان الراغب في شيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه فشدت الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ماهو عليه كما قيل

هويتك اذ عيني عليها غشاوة * فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ولا يرى عيوبه الا من دخل فيه ثم خرج منه ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الاسلام بعد الكفر خير من الذين ولدوا في الاسلام قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه انما ينتقض عرى الاسلام عروة عروة اذا ولد في الاسلام من لا يعرف الجاهلية وأما فساده للحواس ظاهراً فانه يمرض البدن وينهكه وربما أدى الى تلفه كما هو المعروف في اخبار من قتله العشق وقد رفع الى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انحل حتى عاد جلداً على عظم فقال ماشأن

Marfat.com

ثم تقدم هو الافراط في المحبة بحيث يستولى المعشوق على القلب من العاشق حتي لايخلو من تخيله وذكره والفكر فيه بحيث لايغيب عن خاطره وذهنه فعند ذلك تشتغل النفس بالخواطر النفسانية فتتعطل تلك القوي فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يضر دواؤه ويتعذر فتغير أفعاله وصفاته ومقاصده ويختل جميع ذلك فتعجز البشرعن صلاحه كما قيل

الحب أول مايكون لجاجة * يأتى بها وتسوقه الاقدار
حتى اذاخاض الفتى لجج الهوي * جاءت أمور لاتطاق كبار

والعشق مباديه سهلة حلوة وأوسطه هم وشغل قلب وسقم وآخره عطب وقتل ان لم يتداركه عناية من الله كما قيل

وعش خالياً فالحب أوله عناً * وأوسطه سقم وآخره قتل

وقال آخر

تولع بالعشق حتى عشق * فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة * فلما تمكن منها غرق

والذنب له فهو الجاني على نفسه وقد قعد تحت المثل السائر يداك أوكياوفوك نفخ

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات مقام ابتداء ومقام توسط ومقام انتهاء فاما مقام ابتدائه فالواجب عليه مدافعته بكل مايقدر عليه اذا كان الوصول الى معشوقه متعذرا قدرا وشرعا فان عجز عن ذلك وأبي قلبه الاالسفر الى محبوبه وهذا مقام التوسط والانتهاء فعليه كتمانه ذلك وأن لا يفشيه الى الخلق ولا يشمت بمحبوبه ولا يهتكه بين الناس فيجمع بين الظلم والشرك فان الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم وربما كان أعظم ضرراً على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله فانه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه الي وقوع الناس فيه وانقسامهم الى مصدق ومكذب وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بادنى شبهة واذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعين وخبر العاشق لهتك عن المتهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقين بل اذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذباً وافتراء على غيره جزموا بصدقة جزماً لايحتمل النقيض بل لو جمعهما مكانا واحداً اتفاقا جزموا ان ذلك عن وعد واتفاق بينهما وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخييل والشبهة والاوهام والاخبار الكاذبة كجزمهم بالحسيات المشاهدة وبذلك وقع أهل لافك

Marfat.com

في الطيبة المطيبة حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من فوق سبع سموات بشبهة
بجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر حتى هلك من هلك ولولا أن تولى الله
سبحانه براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمراً آخر والمقصود ان في اظهار المبتلى
عشق من لايحل له الاتصال به من ظلمه واذاه ماهو عدوان عليه وعلى أهله وتعريض
لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه فان استعان عليه ممن يستميله اليه اما برغبة أو رهبة
تعدى الظلم وانتشر وصار ذلك الواسطة بين الراشي والمرتشي وصار ذلك الواسطة ظالم
واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد لعن الرائش وهو الواسطة ديوثا ظالما بين الراشي
أوالمرتشي لايصال الرشوة فما الظن بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق في الوصلة المحرمة
فيتساعد العاشق على ظلم المعشوق وغيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه في نفس
ومال أو عرض فان كثيرا ما يتوقف حصول المطلوب غرضه على قتل نفس يكون حياتها مانعة
من غرضه وكم قتيل طل دمه بهذا السبب من زوج وسيد وقريب وكم خبثت امرأة على بعلها وجارية
وعبد على سيدها وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك وتبرأ منه وهو من اكبر
الكبائر واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه وأن
يستام على سومه فكيف بمن يسعى بالتفريق بينه وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما وعشاق
الصور ومساعدوهم من الديثة لايرون ذلك ذنبا فان في طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة
الزوج والسيد ففي ذلك من اثم ظلم الغير مالعله لايقصر عن اثم الفاحشة إن لم يربو عليها ولا
يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة فان التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له
المطالبة به يوم القيامة فان من ظالم الوالد بافساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه
وظلم الزوج بافساد حبيبته والجناية على فراشه أعظم من ظلمه باخذ ماله كله ولهذا يؤذيه
ذلك أعظم مما يؤذيه باخذ ماله ولايعدل ذلك عنده الاسفك دمه فياله من ظلم أعظم إثما من
فعل الفاحشة فان كان ذلك حقاً لغاز في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة وقيل
له خذ من حسناته ماشئت كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال صلى الله عليه وسلم
فما ظنكم أى فما تظنون تبقى له من حسناته فان انضاف الي ذلك أن يكون المظلوم جارا أو
ذا رحم محرم تعدد الظلم وصار ظلما مؤكدا لقطيعة الرحم واذي الجار ولايدخل الجنة قاطع
رحم ولا من لايأمن جاره بوائقه فان استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين الجن
إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك ضم الى الشرك والظلم كفر السحر فان لم يفعله هو ورضي
به كان راضيا بالكفر غير كاره لحصول مقصوده وهذا ليس ببعيد من الكفر والمقصود
أن التعاون في هذا الباب تعاون على الاثم والعدوان وأما مايقترن بحصول غرض العاشق

Marfat.com

من الظلم المنتشر المتعـدي ضرره فامر لايخفى فانه إذا حصـل له مقصوده من المعشوق فللمعشوق أموراخر يريد من العاشق إعانته عليها فلايجـد من إعانته بدا فيبقى كل منهما يعين الآخرعلى الظلم والعـدوان فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من اتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفا على ظلمه فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي يكون فيها ظلم الناس فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما في القبيح لتعاونهما بذلك على الظلم وكما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه على مافيه ظلم وعدوان وبغى حتي ربما يسعي له في منصب لايليق به ولايصلح لمثله في تحصيل مال من غيرحله وفي استطالته على غيره فاذا اختصم معشوقه وغيره أوتشاكيالم يكن الافي جانب المعشوق ظالما كان أومظلوما وهذا الي ماينضم الى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم والتوصل بهما الي معشوقه بسرقة أوغصب أوخيانة أويمين كاذبة أوقطع طريق ونحوذلك وربما أدي ذلك الى قتل النفس التي حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به الى معشوقـه فكل هـذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور وربما حمله على الكفر الصريح وقـد ننصر جماعة ممن نشأ في الاسلام بسبب العشق كما جري لبعض المؤذنين حين ابصروهو على سطح مسجد امرأة جميلة ففتن بها فنزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت هي نصرانية فان دخلت في ديني تزوجت بك ففعل فرقى في ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات ذكرهذا عبد الحق في كتاب العاقبـة له وإذا أراد النصاري أن ينصروا الاسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه في نفسها حتي إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها ان دخـل في دينها فهنـالك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيـا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه لمعاونته له على الفاحشة وظلمه لنفسه فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه وظلمهما متعد الى الغير كماتقدم وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها والمعشوق اذا لم يتق الله فانه يعرض العاشق للتلف وذلك ظلم منـه بان يطمعه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتي يستخرج منـه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه لئلا يزول غرضـه بقضاء وطره منه فهو يسومه سوء العذاب والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه ولا سيما إذا جاد بالوصال لغيره وكم للعشق من قتيل من الجانبين وكم قد زال من نعمة وأفقر من غني وأسقط من مرتبة وشتت من شمل وكم أفسد من أهـل للرجل وولد فان المرأة إذارأت بعلها عاشقا لغيرها اتخذت هي معشوقا لنفسها

Marfat.com

فيصير الرجل متردداً بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة فمن الناس من يؤثر هذا ومنهم من يؤثر هذا فعلى العاقل أن يحكم على نفسه سد عشق الصور لئلا يؤذيه ويؤديه ذلك الى الهلاك والى هذه المفاسد وأكثرها أو بعضها فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه والمغرر بها فاذا هلكت فهو الذي أهلكها فلولا تكراره النظر الى وجه معشوقه وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه فان أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع فان لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الاياس من ذلك لم يحدث له العشق فان إقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشغل قلبه به لم يحدث له ذلك فان اطاع مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق وقارنه خوف ماهو أكبر عنده من لذة وصاله إما خوف ديني كخوف النار وغضب الجبار واجتناب الاوزار وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له العشق فان فاته هذا الخوف وقارنه خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسه وماله وذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس وسقوطه من عين من يعز عليه وغلب هذا الخوف لداعي العشق دفعه وكذلك اذا خاف من فوات محبوب هو أحب اليه وأنفع له من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة المعشوق إندفع عنه العشق فانتفاء ذلك كله أو غلبت محبة المعشوق لذلك إنجذب اليه القلب بالكلية ومالت اليه النفس كل الميل فان قيل قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التي من جملتها رقة الطبع وتروح النفس وخفتها وزوال تلفها ورياضتها وحملها على مكارم الاخلاق من الشجاعة والكرم والمروؤة ورقة الحاشية ولطف الجانب وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازي إن ابنك قد عشق فلانة فقال الحمد لله الذى صيره الى الطبع الآدمي وقال بعضهم العشق داء أفئدة الكرام وقال غيره العشق لايصلح الا لذي مروءة طاهرة وخليقة ظاهرة أولذي لسان فاضل وإحسان كامل أو لذي أدب بارع وحسب ناصع وقال آخر العشق حنان الجبان ويصفي ذهن الغبي ويسخي كف البخيل ويذل عزة الملوك ويسكن نوافر الاخلاق وهو أنيس من لاأنيس له وجليس من لاجليس له وقال آخر العشق يزيل الاثقال ويلطف الروح ويصفي كدر القلب ويوجب الارتياح لافعال الكرام كما قيل

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم * اذا غاله من حادث الحب غائله
كريم يميت السر حتى كانه * إذا إستفهموه عن حديثك جاهله
يودبان يمسي سقيما لعلها * إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف في طلب العلي * لتحمد يوما عند ليلى شمائله

فالعشق يحمل على مكارم الاخلاق وقال بعض الحكماء العشق يروض النفس ويهذب

الاخلاق إظهاره طبعى وإضماره تكلفي وقال الآخر من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهى فهو فاسد المزاج يحتاج الى علاج وأنشد في ذلك المعني

اذاأنت لم تعشق ولم تدر ماالهوى * فما لك في طيب الحياة نصيب

وقال الآخر

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ماالهوى * فقم واعتلف تبنا فانت حمار

وقال آخر

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ماالهوى * فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

وقال بعد العشاق أولي العفة والصيانة إذا عفوا تشرفوا واذا عشقوا تظرفوا وقيل لبعض العشاق ما كنت تصنع بمن تهوي لو ظفرت به فقال كنت أمتع طرفي بوجهه وأروح قلبي بذكره وحديثه واستر منه مالا أحب كشفه ولا أصير بقبيح الفعل الى ماينقض عهده ثم أنشد

أخلو به فأعف عنه تكرماً * خوف الديانة لست من عشاقه

كالماء في يد صائم يلتذ به * ظمأ فيصبر عن لذيذ مذاقه

وقال أبو اسحق بن ابراهيم أرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم رقيقة خفيفة نزهتهم الموانسة وكلامهم يحيي موات القلوب ويزيد في العقول ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا وقال آخر العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان أن تركته ضرك وان أكثرت منه قتلك وفي ذلك قيل

خليلي إن الحب فيه لذاذة * وفيه شقاء دائم وكروب

على ذاك ماعيش يطيب بغيره * ولا عيش الا بالحبيب يطيب

ولا خير في الدنيا بغير صبابة * ولا في نعيم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطي عن ابى غسان قال مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجارية وهي تقول وهويته من قبل قطع تمائمي * متمايلا مثل القضيب الناعم

فسألها أحرة أنت أم مملوكة قالت بل مملوكة فقال تهوين فتلكأت فاقسم عليها فقالت

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها * قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها وبعث بها الى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب فقال هؤلاء والله فتن الرجال وكم والله قد مات بهن كريم وعطب بهن سليم وجاءت جارية عثمان بن عفان رضى الله عنه تستدعى على رجل من الانصار قال لها عثمان ماقصتك قالت كلفت ياأمير المؤمنين بابن أخيه فما انفك أداعبه فقال له عثمان إما أن تهبها الى ابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالي فقال أشهدك ياأمير المؤمنين إنها له ونحن لانذكر فساد العشق الذي يتعلق به

Marfat.com

ملى الفاحشة بالمعشوق وإنما الكلام في العشق العفيف من الرجل الظريف الذي يأبى له بمانه ودينه وعفته ومروءته ان يفسد مابينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام وهذا عشق السلف الكرام والائمة الاعلام فهذا عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد لفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره ولم ينكر عليه وعد ظالما من لامه ومن شعره

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم * ولامك أقوام ولومهم ظلم
فمم عليك الكاشحون وقلبهم * عليك الهوى قدنم ماينفع الكتم
فأصبحت كالنمري إذمات حسرة * على أثر هنداوكمن شفه سقم
تجنبت إتيان الحبيب تأثما * ألاإن هجران الحبيب هوالاثم
فذق هجرها قد كنت تزعم أنه * رشاد ألاياء ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه لجارية فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وإمرأته مشهورة وكانت جارية بارعة الجمال وكان معجبا بها وكان يطلبها من إمرأته ويحرص على ان تهبها له فتأبى ولم تزل الجارية في نفس عمر فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فاصلحت وكانت مثلا في حسنها وجمالها ثم دخلت على عمر وقالت ياأمير المؤمنين انك كنت معجبا بجاريتي فلانة فسألتنيها ان أهبها لك فأبيت عليك والآن فقد طابت نفسي لك بها فلما قالت له ذلك استبان الفرح في وجهه وقال عجلي بها علي فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجبا وقال لها انقي ثيابك ففعلت ثم قال لها على رسلك اخبريني لمن كنت ومن أين صرت لفاطمة فقالت أغرم الحجاج عاملا له بالكوفة مالا وكنت في رفيقة ذلك قالت فأخذني وبعثني الى عبد الملك فوهبني لفاطمة قال وما فعل ذلك العامل قالت هلك قال وهل ترك ولدا قالت نعم قال فما حالهم قالت سيئة قال شدي عليك ثيابك واذهبي الى مكانك ثم كتب الى عامله على العراق أن ابعث الي فلان بن فلان على البريد فلما قدم قال له ارفع الي جميع ماأغرمه الحجاج لابيك فلم يرفع اليه شيئاً الا دفعه اليه ثم أمر بالجارية فدفعت اليه ثم قال له اياك واياها فلعل أباك قد وقع بها فقال الغلام هي لك ياأمير المؤمنين قال لاحاجة لي بها قال فابتعها مني قال لست اذا ممن نهى نفسه عن الهوى فلما عزم الفتى على الانصراف قالت أين وجدك بي ياأمير المؤمنين قال على حاله ولقد زادني ولم تزل الجارية في نفس عمر حتى مات رحمه الله وهذا أبو بكر بن محمد بن داود الظاهري العالم المشهور في فنون العلم من الفقه والحديث والتفسير والادب وله قول في الفقه وهو من أكابر العلماء وعشقه مشهور قال نفطويه دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه فقلت كيف نجدك قال حب من تعلم أورثني ماترى فقلت وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه فقال الاستمتاع على وجهين أحدهما

Marfat.com

النظر المباح والآخر اللذة المحظورة فاما النظر المباح فهو الذى أورثني ماتري وأما اللذ المحظورة يمنعنى منها ماحدثني أبى حدثناسويدبن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيي القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة ثم أنشد

انظر الى السحر يجري من لواحظه * وانظر الى دعج في طرفه الساج
وانظر الى شعرات فوق عارضه * كأنهن نمال دب في عاج

(ثم انشد)

مالهم أنكروا سواداً بخديه * ولا ينكرون ورد الغصون
ان يك عيب خده بدو لشعر * فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له نفيت القياس في الفقه وأثبته في الشعر فقال غلبة الوجد وملكة الوجه النفس دعت اليه ثم مات من ليلته وسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة ومن كلامه فيه من يأس بمن يهواه ولم يمت من وقته سلاه وذلك ان أول روعات الناس تأتي القلب وهو غير مستعدلها فأما الثانية تأتي القلب وقد وطأت لها الروعة والتقى هو وأبو العباس بن شريح في مجلس أبي الحسن على بن عيسى الوزير فتناظرا في مسألة من الايلاء قال له ابن شريح أنت بأن تقول من دامت لحظاته كثرت حسراته أحذق منك بالكلام على الفقه فقال الآن كان ذلك فاني أقول

أنزه في روض المحاسن مقلتي * وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى مالو أنه * يصب على الصخر الاصم تهدما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري * فلولا اختلاس وده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم * فلست أرى وداً صحيحا مسلما

فقال له أبو العباس بن شريح بم تفخر علي ولو شئت لقلت

مطاعمه كالشهد في نغماته * قد بت أمنعه لذيذ سناته
بصبابه وبحسنه وحديثه * وأنزه اللحظات عن وجناته
حتى اذا ماالصبح راح عموده * ولى بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر يحفظ عليه الوزير ماأقربه حتى يقيم شاهدين على انه ولى بخاتم ربه وبراءته فقال ابن شريح يلزمني في هذا مايلزمك في قولك

أنزه في روض المحاسن مقلتي * وأمنع نفسي أن تنال محرما

فضحك الوزير فقال لقد جمعتما لطفا وظرفا ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه وجاءته يوما فتيا مضمونها

يابن داود يافقيه العراق * إفتنا في فواتر الاحداق
هل عليها بما أتت من جناح * أم حلال لها دم العشاق

فكتب تحت البيتين بخطه

عندي جواب سائل العشاق * فاسمعه من قرح الحشا مشتاق
لما سئلت عن الهوى هيجتني * وأرقت دمعا لم يكن مهراق
ان كان معشوقا يعذب عاشقا * كان المعذب أنعم العشاق

قال صاحب كتاب منازل الاحباب شهاب الدين محمود بن سليمان بن مهدي صاحب كتاب الانشاء وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيبا للسائل

قل لمن جاء سائلا عن لحاظ * هن يلعبن في دم العشاق
ماعلى السيف في العدا من جناح * ان ثني الخد عن دم مهراق
وسيوف اللحاظ أولى بأن * تصفح عما جنت على العشاق
انما كل من قتل شهيد * دولهذا يفني فنا وهو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني شيخ الحنابلة في وقته رحمه الله

قل للامام أبي الخطاب مسألة * جاءت اليك وما أخال سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة فذ * لاحت مخاطرة ذات الجمال لها

فأجابه تحت سؤاله

قل للأديب الذي وافى بمسألة * سرت فؤادي لما ان أصخت لها
إن الذي فتنته عن عبادة ربه * فريدة ذات حسن فاثنى ولها
إن تاب ثم قضا عنه عبادة ربه * فرحمة الله تغشى من عصى ولها

وقال عبد الله بن معمر القيسي حججت سنة ثم دخلت مسجد المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فبينما أنا جالس ذات ليلة بين القبر والمنبر اذ سمعت أنينا فأصغيت اليه فاذا هو يقول

أشجاك نوح حمائم السدر * فأهجن منك بلابل الصدر
أم عن نومك ذكر غانية * أهدت اليك وساوس الفكر
ياليلة طالت على دنف * يشكو السهاد وقلة الصبر
أسلمت من تهوى لحر جوى * متوقد كتوقد الجمر
فالبدر يشهد اني كلف * مغرم بحب شبيهة البدر

ما كنت أحسبني أهيم بحبها * حتى بليت وكنت لا أدري

ثم انقطع الصوت فلم أدر من أين جاء واذا به قد عاد البكاء والانين ثم أنشد يقول

أشجاك من ريا خيال زائر * والليل مسود الذوائب عاكر
واعتاد مهجتك الهوى برشيشة * وأهتاج مقلتك الخيال الزائر
ناديت ريا والظلام كأنه * يم تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسري في السماء كأنه * ملك ترجل والنجوم عساكر
وترى به الجوزاء ترقص في الدجي * رقص الحبيب علاه سكر طاهر
ياليل طلت على محب ماله * إلا الصباح مساعد وموازر
فاجابني مت حتف أنفك واعلمن * إن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال وكنت ذهبت عند ابتدائه بالابيات فلم يتنبه الا وأنا عنده فرأيت شابا مقتبلا شبابه قد خرق الدمع في خده خرقين فسلمت عليه فقال إجلس من أنت فقلت عبد الله بن معمر القيسي قال ألك حاجة قلت نعم كنت جالسا في الروضة فما راعني الا صوتك فبنفسي افديك فما الذي تجده فقال أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الانصاري غدوت يوما الى مسجد الاحزاب فصليت فيه ثم اعتزلت غير بعيد فاذا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا واذا في وسطهن جارية بديعة الجمال كاملة الملاحة فوقفت علي وقالت ياعتبة ماتقول في وصل من يطلب وصلك ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبراً ولم أقف لها على أثر فأنا حيران أنتقل من مكان الى مكان ثم انصرع وأكب مغشيا عليه ثم أفاق كأنما أصبغت وجنتاه بورس ثم أنشد يقول

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة * فياهل تروني بالفؤاد على بعدي
فؤادي وطرفي ناسفان عليكم * وعندكم روحي وذكركم عندي
ولست ألذ العيش حتى أراكم * ولو كنت في الفردوس جنة الخلد

فقلت يا إبن أخي تب الى ربك واستغفره من ذنبك فبين يديك هول المطلع فقال ما أنا بسائل حتى يذوب العارضان فلم أزل معه حتى طلع الصباح فقلت قم بنا الى مسجد الاحزاب فلعل الله أن يكشف كربتك فقال أرجوا ذلك ان شاء الله ببركة طاعتك فذهبنا حتى أتينا مسجد الاحزاب فسمعته يقول

ياللرجال ليوم الاربعاء أما * ينفك يحدث لى بعد النهار طربا
ما إن يزال غزال منه يقلقني * يأتي الى مسجد الاحزاب منتقبا
يخبر الناس إن الاجر همته * وما أنا طالبا للاجر محتسبا

Marfat.com

لو كان يبغي ثوابا ما أتى صلفا * مضمخا بفتيت المسك مختضبا

م جلسنا حتى صلينا الظهر فاذا بالنسوة قدأقبلن وليست الجارية فيهن فوقفن عليه وقلن له إعتبة ماظنك بطالبة وصلك وكاشفة بالك قال وما بالها قلن أخذها أبوها وارتحل بها الى أرض السماوة فسئلتهن عن الجارية فقلن هي ريا بنت الغطريف السلمي فرفع عتبة اليهن رأسه وقال

خليلي ريا قد أجد بكورها * وسارت الى أرض السماوة غيرها

خليلي إني قد غشيت من البكا * فهل عند غيري مقلة أستعيرها

فقلت له إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر ووالله لأبذلنه اماك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضاء فقم بنا الى مسجد الانصار فقمنا وسرنا حتي أشرفنا على ملأ منهم فسلمت فأحسنوا الرد فقلت أيها الملأ ماتقولون في عتبة وأبيه قالوا من سادات العرب قلت فانه قد رمى بداهية من الهوي وماأريد منكم الا المساعدة الى السماوة فقلوا سمعا وطاعة فركبنا وركب القوم معنا حتي أشرفنا على منازل بني سليم فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادرا فاستقبلنا وقال حييتم بالاكرام فقلنا وأنت فحياك الله إنا لك أضياف فقال نزلتم أكرم منزل فنادي يامعشر العبيد أنزلوا القوم ففرشت الانطاع والنمارق وذبحت الذبائح فقلنا لسنا بذائقي طعامك حتي تقضي حاجتنا فقال وما حاجتكم قلنا نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر فقال إن التي تخطبونها أمرها الى نفسها وأنا أدخل أخبرها ثم دخل مغضبا على إبنته فقالت ياأبت مالي أرى الغضب في وجهك فقال قد ورد الانصار يخطبونك مني فقالت سادات كرام إستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فلمن الخطبة منهم قال لعتبة قالت والله لقد سمعت عن عتبة هذا إنه بغي بما وعد ويدرك اذا قصد فقال أقسمت لاأزوجنك إياه أبدا ولقد نمى الي بعض حديثك معه فقالت ما كان ذلك ولكن اذا أقسمت فان الانصار لايردون ردا قبيحا فأحسن لهم الرد فقال بأي شيء قالت اغلظ عليهم المهر فانهم قوم يرجعون ولا يجيبون فقال ماأحسن ماقلت فخرج مبادرا عليهم فقال ان فتات الحي قد أجابت ولكني أريد لها مهر مثلها فمن القائم به فقال عبد الله بن معمر أنا فقال ماشئت فقال ألف مثقال من الذهب ومائة ثوب من الابراد وخمسة أكرسة من عنبر فقال عبد الله لك ذلك كله فهل أجبت قال نعم قال عبد الله فأنفذت نفرا من الانصار الى المدينة فأتوا بجميع ماطلب ثم صنعت الوليمة فاقمنا على ذلك أياما ثم قال خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين ثم حملها في هودج وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف فودعناه وسرنا حتي اذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة

Marfat.com

أحسبها من سليم فحمل عليها عتبة فقتل منهم رجالا وجندل منهم آخرين ثم رجع و؛ طعنة تفور دما فسقط الى الارض وأتانا نجدة فطردت الخيل عنا وقد قضى عتبة نحبه فقلنا واعتباه فسمعتنا الجارية فألقت نفسها عن البعير وجعلت تصيح بحرقة وأنشدت

تصبرت لاإنى صبرت وإنما * أعالل نفسي انها بك لاحقه
فلوأنصفت روحي لكانت الى الردي * أمامك من دون البريه سابقه
فما أحد بعدي وبعدك منصف * خليلا ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهقت وقضت نحبها فاحتفرنا لهما قبرا واحدا ودفناهما فيه ثم رجعت الى المدينة فأقمت سبع سنين ثم ذهبت الى الحجاز ووردت المدينة فقلت والله لآتين قبر عتبة أزوره فأتيت القبر فاذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصفر فقلت لأرباب المنزل مايقال لهذه الشجرة قالوا شجرة العروسين ولولم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد وهو حديث سويد بن سعيد بن على بن مسهر عن أبى يحيي القتات عن مجاهد عن ابن العباس يرفعه من عشق وعف وكتم فمات فهو شهيد ورواه سويد أيضاً عن ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا ورواه الخطيب عن الازهري فى الام عن المعافا بن زكريا عن قطبة عن ابن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه ورواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز الماجشون عن عبد العزيز ابن ابى حاتم عن ابن ابي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس وهذا سيد الاولين والآخرين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم نظر الي زينب بنت جحش رضي الله عنها فقال سبحان مقلب القلوب وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه فلما هم بطلاقها قال له اتق الله وامسك عليك زوجك فلما طلقها زوجها الله سبحانه من رسوله صلى الله عليه وسلم من فوق سبع سموات فكان هو وليها وولى تزويجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد عقد نكاحها فوق عرشه وأنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه وهذا داود نبي الله عليه السلام لما كان تحته تسعة وتسعين امرأة ثم أحب تلك المرأة وتزوجها وأكمل بها المأة قال الزهري أول حب كان فى الاسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها وكان مسروق يسميها حبيبة رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم وقال أبو القيس مولي عبد الله ابن عمرو أرسلني عبدالله بن عمرو الى أم سلمة أسألها أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل أهله وهو صائم فقالت لا فقال إن عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها وهو صائم فقالت أم سلمة رضي الله

Marfat.com

عنها إن النبي صل الله عليه وسلم كان إذا رأي عائشة لم يتمالك نفسه عنها وذكر سعيد بن إبراهيم عن عامر بن سعيدعن أبيه قال كان إبراهيم خليل الله يزوره جبرائيل في كل يوم من الشام على البراق من شغفه به وقلة صبره عنه وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما اشتري جارية رومية فكان يحبها حبا شديدا فوقعت ذات يوم عن بغلة له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها ويقبلها وكانت تكثر من أن تقول له يابطرون أنت قالون تعني يامولاي انت جيد ثم إنها هربت منه فوجد عليها وجدا شديدا فقال

قد كنت أحسبني قالون فانصرفت * فاليوم أعلم إني غير قالون

قال أبو محمد بن حزم وقد أحب من الخلفاء الراشدين والائمة المهتدين كثير وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ياأمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها فقال ذلك مالا يملك فالجواب وبالله التوفيق ان الكلام فى هذا الباب لابد فيه من التميز بين الواقع والجائز والنافع والضار ولا يستعجل عليه بالذم والانكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة وانما يتبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه والا فالعشق من حيث هو لايحمد ولا يذم ونحن نذكر النافع من الحب والضار والجائز والحرام اعلم ان أنفع المحبة على الاطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلة القلوب على محبته وفطرت الخليقة على تألهه وبها قامت الارض والسموات وعليها فطر المخلوقات وهي سر شهادة أن لاإله إلا الله فان الآله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والاجلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده والعبادة لاتصح الاله وحده والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لايغفره الله والله سبحانه يحب لذاته من سائر الوجوه وما سواه فانما يحب تبعا لمحبته وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ودعوة جميع رسله صلى الله عليهم وسلم أجمعين وفطرته التي فطر عليها عباده وما ركب فيها من العقول وما أسبغ عليهم من النعم فان القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن اليها فكيف بمن كل الاحسان منه وما بخلقه جميعهم من نعمه فمنه وحده لاشريك له كما قال تعالى وما بكم من نعمة فمن الله الآية وما تعرف به الى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العليا وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته والمحبة لها داعيين الجلال والجمال والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك فانه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له والاجمال كله منه فلا يستحق ان يحب لذاته من كل وجه سواد قال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وقال تعالي ياأيها الذين آمنو من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه الآية والولاية أصلها الحب فلا موالات الابحب

كما ان المداوة أصلها البغض والله ولى الذين آمنوا وهم أولياؤه فهم يوالونه بمحبتهم له وهو يواليهم بمحبته لهم فالله يوالى عبده المؤمن بحسب محبته له ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء بخلاف من والى أولياءه فانه لم يتخذهم من دونه بل موالاته لهم من تمام موالاته وقد أنكر على من سوي بينه وبين غيره في المحبة وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباللهواخبر عمن سوي بينه وبين الانداد في المحبة انهم يقولون في النار لمعبوديهم تاللهان كنالفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وبهذا التوحيد في المحبة أرسل الله سبحانه جميع رسله صلى الله عليهم وسلم وأنزل جميع كتبه وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم الى آخرهم ولاجله خلقت السموات والارض والجنة والنار فجعل الجنة لاهله والنار للمشركين به وفيه وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم انه لايؤمن عبد حتى يكون هو أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين فكيف بمحبة الرب جل جلاله وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه لاحتى أكون أحب اليك من نفسك أى لاتؤمن حتى تصل محبتك لي الى هذه الغاية فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أولى بنامن أنفسنا بالمحبة ولوازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولاإله غيره أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم وكل مامنه الى عبده المؤمن يدعوه الى محبة مايحب العبد ويكرهه فعطاؤه ومنعه ومعافاته وابتلائه وقبضه وبسطه وعدله وفضله وأمانته وإحياؤه ولطفه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحلمه وصبره على عبده وإجابته لدعائه وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه اليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه كل ذلك داع للقلوب الى تأله ومحبته بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليه وستره حتى يقضي وطره منها وكلائته وحراسته له وهو يقضي وطره من معصيته وهو يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعي الى محبته فلوان مخلوقا فعل بمخلوق أدني شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته فكيف لايحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن اليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته فخيره اليك نازل وشرك اليه صاعد يحبب اليه بنعمه وهو غني عنه والعبد يتبغض اليه بالمعاصي وهو فقير اليه فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته ولا معصية العبد ولومه يقطع إحسان ربه عنه فألأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه وأيضا فكل من تحبه من الخلق أو يحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك والرب سبحانه وتعالى يريدك لك كما في الأثر الآلهي عبدي كل يريدك لنفسه وأنا أريدك لك فكيف لايستحي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة

وهو معرض عنه مشغول بحب غيره وقد استغرق قلبه محبة ماسواه وأيضا فكل من تعامله من الخلق ان لم يربح عليك لم يعاملك ولا بدله من نوع من أنواع الربح والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه فالدرهم بعشرة أمثاله الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محوا وأيضا فهو سبحانه خلقك لنفسه وكل شيء خلق لك في الدنيا والآخرة فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته وأيضا فمطلبك بل مطالب الخلق كلهم جميعا لديه وهو أجود الاجودين وأكرم الاكرمين ويعطي عبده قبل أن يسأله فوق مايؤمله يشكر على القليل من العمل وينميه ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ويسأله من في السموات والارض كل يوم هو في شأن لايشغله سمع عن سمع ولا يغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين بل يحب الملحين في الدعاء ويحب أن يسئل ويغضب اذا لم يسئل فيستحي من عبده حيث لايستحي العبد منه ويستره حيث لايستر نفسه ويرحمه حيث لايرحم نفسه دعاه بنعمته وإحسانه وناداه الى كرامته ورضوانه فأبي فأرسل رسله صلى الله عليهم وسلم في طلبه وبعث معهم اليه عهده ثم نزل سبحانه بنفسه وقال من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له أدعوك للوصل فتأبي أبعث رسلي في الطلب أنزل اليك بنفسي ألقاك في النوم وكيف لا تحب القلوب من لايأتي بالحسنات إلاهو ولا يذهب بالسيئات الاهو ولايجيب الدعوات ويقيل العثرات ويغفر الخطيئات ويستر العورات ويكشف الكربات ويغيث اللهفات وينيل الطلبات سواه فهو أحق من ذكر وأحق من شكر وأحق من حمد وأحق من عبد وأنصر من ابتغي وأرأف من ملك وأجود من سئل وأوسع من أعطي وأرحم من استرحم وأكرم من قصد وأعز من التجيء اليه وأكفي من توكل عليه أرحم بعبده من الوالدة بولدها وأشد فرحا بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الارض المهلكة اذا يئس من الحياة فوجدها وهو الملك فلا شريك له والفرد فلا ندله كل شيء هالك الا وجهه لن يطاع الا باذنه ولن يعصي الا بعلمه يطاع فيشكر وبتوفيقه ونعمته أطيع ويعصي فيغفر ويعف وحقه أضيع فهو أقرب شهيد وأدنى حفيظ وأوفى وفي بالعهد وأعدل قائم بالقسط حال دون النفوس وأخذ بالنواصي وكتب الآثار ونسخ الآجال فالقلوب له مفضية والسر عنده علانية والعلانية والغيوب لديه مكشوف وكل أحد اليه ملهوف وعنت الوجوه لنور وجهه وعجزة القلوب عن إدراك كنهه ودلت الفطرة والادلة كلها على إمتناع مثله وشبهه أشرقت لنور وجهه الظلمات إستنارت له الارض والسموات وصلحت عليه جميع المخلوقات لاينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار

Marfat.com

وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه ماعتاض باذل حبه لسواه من * عوض ولو ملك الوجود باسره

فصل

وهنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به وهو أن كمال اللذة والسرور والفرح ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لامرين أحدهما كمال المحبوب في نفسه وجماله وإنه أولى بايثار المحبة من كل ماسواه والامر الثاني كمال محبته واستفراغ الوسع في حبه وإيثار قربه والوصول اليه على كل شيء وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوته ومحبته فكل ما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحب أكمل فلذة من اشتد ظمؤه بادراك الماء الزلال ومن اشتد جوعه باكل الطعام الشهى ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته فاذا عرفت هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه بل هو مقصود كل حي وعاقل واذا كانت اللذة مطلوبة في نفسها فهى تذم اذا أعقبت ألم أعظم منها أو منعت لذة خيراً منها وأجل فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات وفوتت أعظم اللذات والمسرات وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لاتنغيص فيها ولا تنكد بوجه ما وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها قال تعالى بل تؤثرون الحيوة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال السحر لفرعون لما آمنوا اقض ماأنت قاض إنما تقضي هذه الحيوة الدنيا الآية والله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليبتليهم وبذل من أطاعه هذه اللذة الدائمة في دار الخلد وأما الدنيا فمنقطعة ولذاتها لاتصفو أبداً ولا تدوم بخلاف الآخرة فان لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين مع الخلود أبداً فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين بل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا المعني الذي قصده الناصح لقومه بقوله ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار فاخبرهم ان الدنيا متاع ليستمتع بها الى غيرها وان الآخرة هى المستقر واذا عرفت أن لذات الدنيا متاع وسبيل الى لذات الآخرة ولذلك خلقت الدنيا لذاتها فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت اليها لم يذم تناولها بل يحمد لحسب ايصالها الى لذة الآخرة اذا عرف فاعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر الى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والقرب منه كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية فوالله ماأعطاهم شيئاً أحب اليهم من النظر اليه وفي حديث آخر إنه اذا تجلي لهم ورأوه نسوا ماهم فيه من النعيم وفى النسائي ومسند الامام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضى الله

Marfat.com

عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم في دعائه واسئلك اللهم لذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك وفي كتاب السنة لعبد الله بن الامام أحمد مرفوعا كأن الناس يوم القيمة لم يسمعوا القرآن من الرحمن فاذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوا قبل ذلك فاذا عرف هذا فاعظم الاسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الاطلاق وهي لذة معرفته سبحانه ولذة محبته فان ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي ونسبة لذاتها الفانية اليه كتفلة في بحر فان الروح والقلب والبدن انما خلق لذلك فاطيب مافي الدنيا معرفته سبحانه ومحبته والذما في الجنة رؤيته ومشاهدته فمحبته ومعرفته قرة العيون ولذة الارواح وبهجة القلوب ونعيم الدنيا وسرورها من اللذة القاطعة عن ذلك تنقلب آلاما وعذابا ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك فليس الحياة الطيبة الابالله وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول إن كان أهل الجنة في نعيم مثل هذا إنهم لفى عيش طيب وكان غيره يقول لو يعلم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب يقول في حاله

وماالناس إلاالعاشقون ذووالهوي * فلاخير فيمن لايحب ويعشق

ويقول الآخر

أف للدنيا متى ما لم يكن * صاحب الدنيا محب أو حبيب

ويقول الآخر

ولاخير في الدنيا ولافي نعيمها * وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول الآخر

أسكن الى سكن تلذ بحبه * ونهب الزمان وأنت منفرد

ويقول الآخر

تشكى المحبون الصبابة ليتني * تحملت مايشقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها * فلم يلقها قبلى محب ولابعدي

فكيف بالمحبة التى هي حياة القلوب وغذاء الارواح وليس للقلب لذة ولانعيم ولا فلاح ولاحياة الابها وإذافقدها القلب كان المهأعظم من ألم العين إذا فقدت نورها والأذن إذا فقدت سمعها والانف إذا فقد شمه واللسان إذا فقد نطقه بل فساد القلب إذا خلى من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلي منه الروح وهذا الامر لايصدق به الامن فيه حياة ومالجرح ميت ايلام والمقصود إن أعظم لذات الدنيا هي السبب الموصل الى أعظم لذة في الآخرة ولذات الدنيا ثلاثة أنواع فاعظمها وأكملها ماأوصل الى

لذة الآخرة ويثاب الانسان على هذه اللذة أتم ثواب ولهذا كان المؤمن يثاب على مايقصد به وجه الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه وشفاء غيظ لقهر عدوالله وعدوه فكيف بلذة ايمانه ومعرفته بالله ومحبته له وشوقه الى لقائه وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم النوع الثاني لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاما أعظم منها كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم في الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله ويستمتع بعضهم ببعض كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا الآية الى قوله يكسبون ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الارض والعلو بغير الحق وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات بمنزلة من قدم لغيره طعام لذيذ مسموم يستدرجه به الى هلاكه قال تعالى سنستدرجهم من حيث لايعلمون الآية الى قوله إن كيدي متين قال بعض السلف في تفسيرها كل ما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون الآية الى قوله والحمد لله رب العالمين وقال تعالى لاصحاب هذه اللذة أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون وقال في حقهم فلا تعجبك أموالهم ولاأولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا الآية وهذه اللذة تنقلب آلاما من أعظم الآلام كما قيل

يارب كائنة في الحياة لاهلها * عذبا فصارت في المعاد عذابا

النوع الثالث لذة لاتعقب لذة في دار القرار ولاألما يمنع وصول لذة دارالقرار وإن منعت كمالها وهذه اللذة المباحة التي لايستعان بها على لذة الآخرة فهذه زمانها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر ولابد أن يشتغل عما هو خير وأنفع منها وهذا القسم هو الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل الا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فانهن من الحق فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق ومالم يعن عليها فهو باطل

فصل

فهذا الحب لاينكر ولايذم بل هو أحد أنواع الحب وكذلك حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما نعني بالمحبة الخاصة وهي التي تشغل قلب المحب وفكره وذكره لمحبوبه والا فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولايدخل الاسلام إلا بها والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوت لايحصيه إلا الله فبين محبة الخليلين صلى الله عليهما وسلم ومحبة غيرهما مابينهما فهذه المحبة هي التي تلطف وتخفف أثقال التكاليف وتسخي

Marfat.com

البخيل وتشجع الجبان وتصفي الذهن وتروض النفس وتطيب الحياة على الحقيقة لامحبة الصور المحرمة وإذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد كما قيل

سيبقى لكم في مضمر القلب والحشا * سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هي التي تنور الوجه وتشرح الصدر وتحيي القلب وكذلك محبة كلام الله فانه من علامة حب الله واذا أردت أن تعلم ماعندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك وإلتذاذك بسماعه أعظم من إلتذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم فانه من المعلوم أن من أحب حبيباً كان كلامه وحديثه أحب شيئاً اليه كما قيل

ان كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي * أما تأملت مافيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله وكيف يشبع المحب من كلام من هو غاية مطلوبه وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوما لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه إقرأ علي فقال أقرأ عليك وعليك أنزل فقال إني أحب أن أسمعه من غيري فاستفتح فقرأ سورة النساء حتي إذا بلغ قوله فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً قال حسبك الآن فرفع رأسه فاذا عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان من البكاء وكان الصحابة اذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون ياأبا موسى إقرأ علينا فيقرأوهم يستمعون فلمحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف مالمحبي السماع الشيطاني فاذا رأيت الرجل ذوقه وشدة وجده وطربه وشوقه سماعه الابيات دون سماع الآيات في سماع الالحان دون سماع القرآن وهو كما قيل

تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر * وبيت من الشعر ينشد فتميل كالنشوان

فهذا من أقوي الادلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه وتعلقه بمحبة سماع الشيطان والمغرور يعتقد انه على شيء ففي محبة الله وكلامه ورسوله صلى الله عليه وسلم أضعاف أضعاف ماذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه بل لاحب على الحقيقة أنفع منه وكل حب سوى ذلك باطل ان لم يعن عليه ويسوق المحب اليه

فصل

واما محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله وقد من الله سبحانه بها على عباده فقال ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة الآية فجعل المرأة سكناً للرجل يسكن اليها قلبه وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وماحرم منهن

Marfat.com

يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم الى قوله خلق الانسان ضعيفاً وذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه كان اذا نظر الى النساء لم يصبر عنهن وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى إمرأة فاتى زينب فقضى حاجته منها وقال ان المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان فاذا رأى أحدكم امرأة فاعجبته فليأت أهله فان ذلك يرد مافي نفسه فني هذا الحديث عدة فوائد منها الارشاد الى التسلي عن المطلوب بجنسه كما يقوم الطعام مكان الطعام والثوب مقام الثوب ومنها الامر بمداوات الاعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بانفع الادوية وهو قضاء وطره من أهله وذلك ينقض شهوته بها وهذا كما أرشد المتحابين الى النكاح كما في سنن ابن ماجه مرفوعا لم ير للمتحابين مثل النكاح ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذي جعله الله داءه شرعا وقدراً وبه تداوي نبي الله داود صلى الله عليه وسلم ولم يرتكب نبي الله محرماً وانما تزوج المرأة وضمها الى نسائه لمحبته لها وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ولا يليق بنا المزيد على هذا وأما قصة زينب بنت جحش فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه وكان يستشير رسول الله صلى الله عليه وسلم في فراقها وهو يأمره بامساكها فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيفارقها ولابد فاخفى في نفسه ان يتزوجها اذا فارقها زيد وخشى مقالة الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه فانه كان قد تبني زيد قبل النبوة والرب تعالى يريد أن يشرع شرعا عاما فيه مصالح عباده فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله اليها يخطبها لنفسه فجاء زيد واستدبر الباب بظهره وعظمت في صدره لما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فناداها من وراء الباب يازينب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك فقالت ماأنا بصانعة شيئاً حتي آوامر ربي وقامت الى محرابها فصلت فتولى الله عزوجل نكاحها من رسوله صلى الله عليه وسلم بنفسه وعقد النكاح له من فوق عرشه وجاء الوحي بذلك فلما قضي زيد منها وطرا زوجناكها فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لوقته فدخل عليها فكانت تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وتقول أنتن زوجتكن أهليكن وزوجني الله عزوجل من فوق سبع سموات فهذه قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زينب ولاريب أن النبي صلى الله عليه وسلم حبب اليه النساء كما في الصحيح من حديث أنس ورواه النسائي في سننه والطبراني في الاوسط عنه صلى الله عليه وسلم قال حبب الي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة هذا لفظ الحديث لامايرويه بعضهم حبب الي من دنياكم ثلاث زاد الامام أحمد في كتاب الزهد في هذا الحديث أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر

Marfat.com

عنهن وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك وقالوا ماهمه إلا النكاح فرد الله سبحانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونافح عنه فقال أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله الآية وهذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون إمرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين إمرأة وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس اليه فقال عائشة رضى الله عنها وقال عن خديجة إني رزقت حبها فمحبة النساء من كمال الانسان قال ابن عباس خير هذه الامة أكثرهم نساء وقد ذكر الامام أحمد ان عبد الله بن عمر وقع في سهمه يوم حلولا جارية كان عنقها ابريق فضة قال عبد الله فما صبرت عنها ان قبلتها والناس ينظرون الي وبهذا احتج الامام أحمد على جواز الاستمتاع بالمسبية قبل الاستبراء بغير الوطء بخلاف الامة المشتركة والفرق بينهما انه لايتوهم انفساخ الملك في المسبية بخلاف المشتركة فقد ينفسخ فيها الملك فيكون مستمتعا بأمة غيره وقد شفع النبي صلى الله عليه وسلم لعاشق أن يواصله معشوقه بان يتزوج به فأبت وذلك في قصة مغيث وبريرة فانه رآه يمشى خلفها بعد فراقها ودموعه تجري على خديه فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم لو راجعتيه فقالت أتأمرني قال لا إنما أشفع فقالت لاحاجة لي به فقال لعمه ياعباس ألاتعجب من حب مغيث بريرة ومن بغضها له ولم ينكر عليه حبها وان كانت قد بانت منه فان هذا مالايملكه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يساوي بين نسائه بالقسم ويقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لاأملك يعني في الحب وقد قال تعالى ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم يعني في الحب والجماع فلا تميلوا كل الميل ولم يزل الخلفاء الراشدين الرحماء من الناس يشفعون للعشاق الى معشوقهم الجائز وصلهن كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان وكذلك علي أتي بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليل فقال له ماقصتك قال لست بسارق ولكني أصدقك

تعلقت في دار الرباحي خريده * يذل لها من حسن منظرها البدر
لها في بنات الروم حسن ومنظر * اذا افتخرت بالحسن عانقها الفخر
فلما طرقت الدار من حب مهجتي * أتيت وفيها من يوقدها الجمر
تبادرا أهل الدار بي ثم صيحوا * هو اللص محتوم له القتل والاسر

فلما سمع علي بن أبي طالب رضى الله عنه قوله رق له وقال للمهلب بن رباح إسمح له بها فقال ياأمير المومنين سله من هو فقال النهاس بن عينة فقال خذها فهى لك واشتري معاوية

Marfat.com

جارية فأعجب بها إعجابا شديداً فسمعها يوما تنشد أبياتا منها

وفارقته كالغصن يهتز في الثرى * طريرا وسيما بعد ماطر شاربه

فسئلها فأخبرته انها تحب سيدها فردها اليه وفي قلبه منها وذكر الزمخشري في ربيعه ان زبيدة قرأت في طريق مكة على حائط

أما في عباد الله أو في إمائه * كريم يجلي الهم عن ذاهل العقل

له مقلة إما المـاء في قريحة * وأما الحشافالنار منه على رجل

فنذرت ان تحتال لقائلها ان عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه فبينما هي في المزدلفة اذ سمعت من ينشد البيتين فطلبته فزعم انه قالهما في ابنة عم له نذر أهلها أن لايزوجوها منه فوجهت الى الحي وما زالت تبذل لهم المال حتى زوجوها منه واذا المرأة أعشق منه لها فكانت تعده من أعظم حسناتها فتقول ما أنا بشيء أسر مني من جمعي بين ذلك الفتي والفتاة وقال الخرائطي وكان لسليمان بن عبـد الملك غلام وجارية يتحابان فكتب الغلام لهـا يوما

ولقد رأيتك في المنام كأنمـا * أسقيتني من ماء فيك البارد

وكأن كفك في يدي وكأننا * بتنا جميعا في فراش واحـد

فطفقت نومي كله متراقدا * لأراك في نومي ولست براقد

فأجابته الجارية

خيرا رأيت وكلمـا أبصرته * ستناله مني برغم الحاسـد

إني لأرجو أن تكون معانقي * وتبيت مني فوق ثدي ناهد

وأراك بين خلاخلي ودمالجي * وأراك فوق ترائبي ومحاشدي

فبلغ ذلك سليمان فأنكحها الغلام وأحسن حالهما على فرط غـيرته وقال جامع ابن مرجيه سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة هل من حب درهما من وزر فقال سعيد انما تلام على ماتستطيع من الأمر فقال سعيد والله ماسألني أحد عن هذا ولو سألني ما كنت أجيب الا به فعشق النساء ثلاثة أقسام عشق هو قربة وطاعة وهو عشق الرجل امرأته وجاريته وهذا العشق نافع فانه أدعي الى المقاصد التي شرع الله لها النكاح وأكف للبصر والقلب عن التطلع الى غير أهله ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله وعنـد الناس وعشق هو مقت عند الله وبعد من رحمته وهو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه وهو عشق المردان فما ابتلى به الا من سقط من عين الله وطرد عن بابه وأبعـد قلبه عنه وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله كما قال بعض السلف إذا سقط العبـد من عين الله ابتلاه

بمحبة المردان وهذه المحبة هى التي جلبت على قوم لوط ما جلبت وما أوتوا الا من هذا العشق قال الله تعالى لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون ودواء هذا الداء الردى الاستعانة بمقلب القلوب وصدق اللجأ اليه والاشتغال بذكره والتعوض بحبه وقربه والتفكر بالالم الذي يعقبه هذا العشق واللذة التي تفوته به فيترتب عليه فوات أعظم محبوب وحصول أعظم مكروه فاذا قدمت نفسه على هذا وآثرته فليكبر على نفسه تكبير الجنازة وليعلم ان البلاء قد أحاط به والقسم الثالث من العشق العشق المباح الذي لا يملك كعاشق من صورت له امرأة جميلة أو رآها فجأة من غير تعمد فاورثته ذلك عشق لها ولم يحدث له ذلك العشق معصية فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه والانفع له مدافعته والاشتغال بما هو أنفع له منه والواجب على هذا أن يكتم ويعف ويصبر على بلواه فيثيبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته وترك طاعته هواه وإيثار مرضاة الله وما عنده

فصل

والعشاق ثلاثة أقسام منهم من يعشق الجمال المطلق ومنهم من يعشق الجمال المقيد سواء طمع بوصاله أو لم يطمع ومنهم من لا يعشق الا من طمع لوصاله وبين هذه الانواع الثلاثة تفاوت في القوة والضعف فعاشق الجمال المطلق يهيم قلبه في كل واد وله في كل صورة جميلة مراد

فيوما بحزوى ويوم بالعقيق * وبالعذيب يوما ويوما بالخليصاء
وتارة ينتحي بنجد واودية شعب العقيق وطورا قصر أيما

فهذا عشقه أوسع ولكنه غير ثابت كثير التنقل

يهيم بهذا ثم يعشق غيره * ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه وأدوم محبة له ومحبته أقوى من محبة الاول لاجتماعها في واحد ويقسم الاولى ولكن يضعفها عدم الطمع في الوصال وعاشق الجمال الذي يطمع في وصاله أعقل العشاق وأعرفهم وحبه أقوى لان الطمع يمده ويقويه

فصل

وأما حديث من عشق وعف فهذا مما يرويه سويد بن سعيد وقد أنكره حفاظ الاسلام عليه قال ابن عدي في كامله هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد وكذلك ذكره البيهقي وابن طاهر في الزخيرة والتذكرة وأبو الفرج بن الجوزي وعده من الموضوعات وأنكره

أبو عبد الله الحاكم على تساهله وقال أنا أتعجب منه قلت والصواب في الحديث انه من كلام ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا عليه فغلط سويد في رفعه قال أبو محمد بن خلف بن المرزبان حدثنا أبو بكر بن الارزق عن سويد فعاتبته على ذلك فاسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وكان بعد ذلك يسأل عنه ولا يرفعه ولا يشبه هذا كلام النبوة وأما مارواه الخطيب له عن الزهري حدثنا المعافا بن زكريا حدثنا قطبة بن الفضل حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق حدثنا سويد حدثنا ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا فمن أبين الخطأ ولا يحمل هذا عن هشام عن أبيه عن عائشة مثل هـذا عنه من شم أدني رائحة من العلم من الحديث ونحن نشهد بالله أن عائشة ما تكلمت بهذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ولا حدث به عنها عروة ولا حدث به عنه هشام قط وأما حديث ابن الماجشون عن عبد الله بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا فكذب على بن الماجشون فانه لم يحدث بهذا ولم يحدث به عنه الزبير بن بكار وانما هذا من تركيب بعض الوضاعين وياسبحان الله كيف يحتمل هذا الاسناد مثل هذا المتن فقبح الله الواضعين وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي من حديث محمد بن جعفر بن سهل حدثنا يعقوب بن عيسى عن ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرفوعاً وهذا غلط قبيح فان محمد بن جعفر هذا هو الخرائطي ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاث مائة فمحال أن يدرك شيخه يعقوب ابن أبي نجيح لاسيما وقد رواه في كتاب الاعتلال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن أبي نجيح والخرائطي هذا مشهور بالضعف في الرواية ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء وكلام حفاظ الاسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان والهم يرجع في هذا الشأن وماصححه بل ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه ويرجع في الصحيح اليه ولا من عادته التساهل والتسامح فانه لم يصف نفسه له ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف ويروي منها الغث والسمين والمنخنقة والموقوذة قد أنكره وحكم ببطلانه نعم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنه وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه أنه سئل عن الميت عشقا فقال قتيل الهوي لاعقل ولاقود ورفع اليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ فقال ماشأنه فقال العشق جعل علة يومه يستعيذ من العشق فهذا تفسير من قال من عشق وعف وكتم ومات فهو شهيد ومما يوضح ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم عد الشهداء في الصحيح فذكر المقتول في الجهاد والمبطون والحريق والنفساء يقتلها ولدها والغريق وصاحب الهدم فلم يذكر منهم العاشق يقتله العشق وحسب قتيل العشق ان يصح له هـذا الاثر عن ابن عباس رضي الله عنهما على أنه لايدخل الجنة حتى يصبر لله ويعف لله ويكتم لله وهذا لايكون

إلا مع قدرته على معشوقه وايثار محبة الله وخوفه ورضاه وهذا أحق من دخل تحت
قوله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن
الهوى فان الجنة هي المأوي وتحت قوله تعالى ولمن
خاف مقام ربه جنتان فنسأل الله العظيم
رب العرش الكريم أن يجعلنا ممن آثر
واكتفي حبه ورضاه على هواه
بذلك قربه ورضاه آمين يارب
العالمين وصلي الله على
محمد واله وصحبه
أجمعين
آمين

Marfat.com

Marfat.com